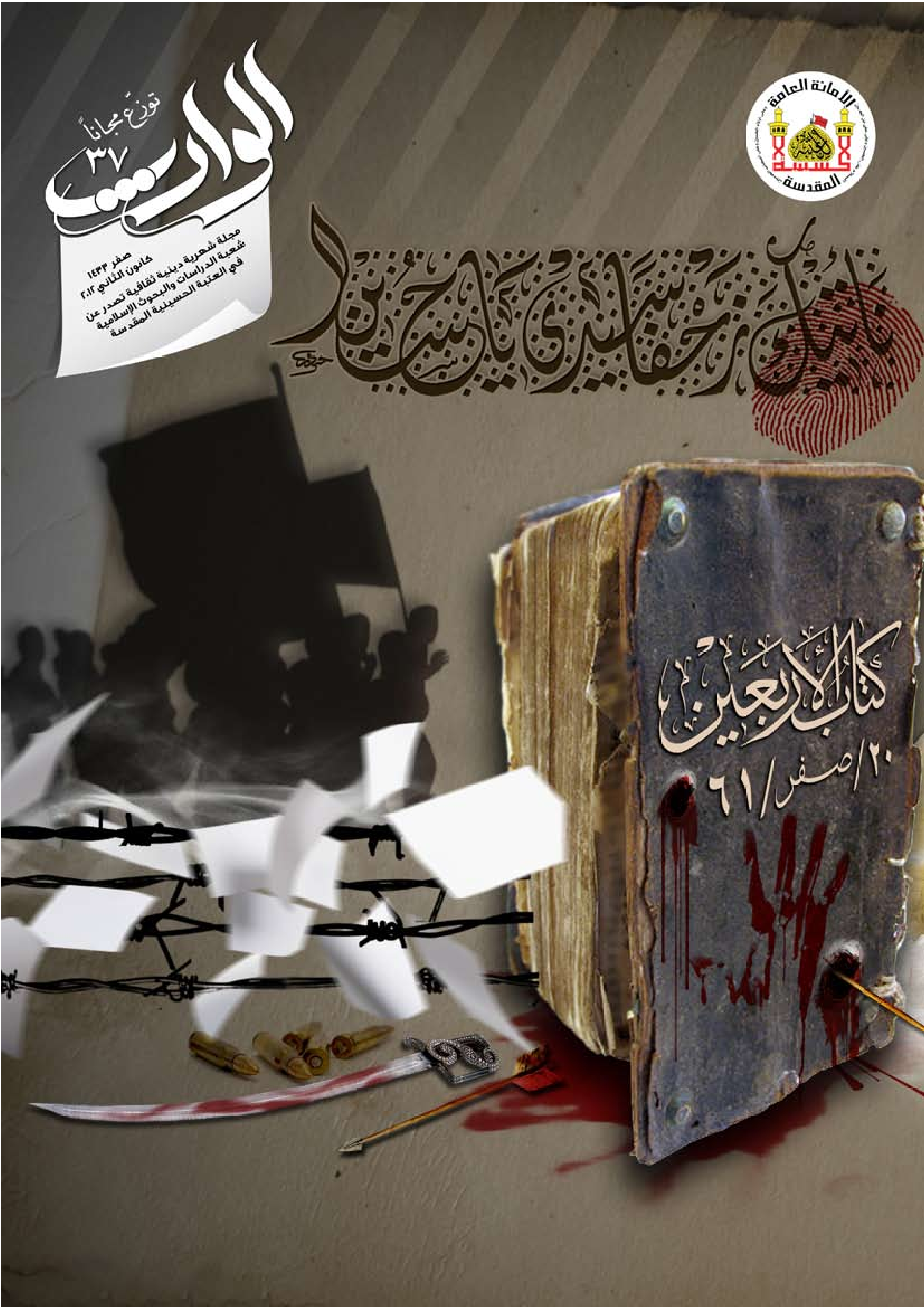


توزّع مجاناً
٣٧
صفر ١٤٣٣
كانون الثاني ٢٠١٢
مجلة شهرية دينية ثقافية تصدر عن
شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية
في العتبة الحسينية المقدسة
الأمانة العامة
المقدسة
كتاب الأربعين
٢٠/صفر/٦١



إصدار
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق - وزارة الثقافة لسنة ٢٠٠٩: ١٢١١

هاتف: ٣٢٦٤٩٩
بدالة: ٣٢١٧٧٦ - داخلي: ٢٤٢
www.imamhussain.org
www.imamhussain-lib.org
info@imamhussain-lib.org



زيارة الأربعين علامة المؤمن

ورد عن الإمام العسكري عليه السلام أنه قال:

(علامات المؤمن خمس؛ صلاة إحدى وخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم في اليمين، وتعفير الجبين والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم).

هذه العلامات أوردها الإمام العسكري عليه السلام في ظرف أراد أن يميّز المؤمن بالمعنى الخاص عن غيره ولكن هناك حكم أخرى منها:

الحث على أداء الصلاة؛ الواجبة والمستحبة، وأراد أن يبيّن أن الفرق بين المؤمن وغيره ترك الصلاة لأنها عمود الدين، وأراد بقوله التختم في اليمين الإشارة إلى أن استحباب التختم في اليمين وليس في اليسار كما كان يصنع بنو العباس وأتباعهم؛ إذ كانوا يتختمون في اليسار، والإشارة أيضاً إلى أن التختم ليس شركاً كما يدعى جهلة هذه الأمة إذ وردت الأحاديث الكثيرة التي تحث على التختم، تركنا ذكرها لكي يكونا لحديث عن المناسبة ألا وهي زيارة الأربعين...

فزيارة الأربعين من علامات المؤمن التابع لأهل البيت عليهم السلام، فبهذه الزيارة إحياء لأمرهم عليهم السلام وتواصل معهم وارتباط بنهجهم الذي فيه رضا الله تعالى ورسوله، ولكننا لا نشك أن الإمام العسكري عليه السلام يقصد من الزيارة هي الزيارة الصحيحة الكاملة التي يحافظ الزائر فيها على آداب الزيارة ويحافظ على النية الخالصة في التقرب إلى الله تعالى ويحفظ فيها بصره وسمعه ولسانه وجوارحه من المعصية لكي تقبل زيارته لأنّ الله تعالى قال:

«وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ».

وإلّا لو خالف الزائر الآداب والالتزام الشرعي، لما كانت زيارته علامة تدل على إيمانه، ولكي لا يطول بنا المقام نهيب بالمحبين والتابعين لأهل البيت عليهم السلام والزائرين لإمامهم الحسين بن علي عليهما السلام أن ينظروا إلى جابر بن عبد الله الأنصاري كيف زار الإمام وليقتدوا به فإن زيارته علامة واضحة على حبه وإيمانه وتشيّعه.

المشرف العام



الإمام الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء

الحلقة الثالثة

لقد تناولنا في الأعداد السابقة خروج الإمام الحسين عليه السلام من مكة متوجّهاً إلى العراق وذكرنا المنازل التي مرّ فيها الموكب الحسيني حتى وصل إلى الشقوق.

ثم من الشقوق إلى الزبالة فجاءه إليه خبر مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، فأخرج للناس كتاباً ونادى:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ أمّا بَعْدُ؛ فَقَدْ أتانا خَبَرٌ فَظيعٌ! قَتْلُ مُسْلِمِ بْنِ عَقيلٍ وَهانِئِ بْنِ عُرْوَةَ، فَمَنْ أحَبَّ مِنْكُمُ الإنْصِرافَ فَلْيَنْصَرِفْ، لَيْسَ عَلَيْهِ مِنّا ذِمامٌ».

فتفرّق الناس عنه تفرّقاً، فأخذوا يميناً وشمالاً، حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة.

وإنّما فعل ذلك لأنه إنّما تبعه الأعراب، لأنّهم ظنّوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون علامَ يقدمون، وقد علم أنهم إذا بيّن لهم لم يصحبه إلاّ من يريد مواساته والموت معه!

وقال القندوزي: أنه عليه السلام قال: «أيّها الناسُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ يَصْبِرُ عَلى حَدِّ السَّيْفِ وَطَعْنِ الأسِنَّةِ فَلْيَقُمْ مَعَنا وَإلاّ فَلْيَنْصَرِفْ عَنّا».

لقاؤه عليه السلام مع هلال بن نافع

فبينما الحسين عليه السلام في المسير إذ جاء هلال بن نافع وعمرو بن خالد من الكوفة، فسأل منهما أحوال الناس فقالا: أما الأغنياء فقلوبهم إلى ابن زياد، وأما باقي الناس فقلوبهم إليك، وإنّ مسلماً وهانئاً وقيساً ـ الذي كان رسولك ـ قتلوا، فقال:

«اللهُمَّ اجْعَلِ الْجَنَّةَ لَنا وَلأشْياعِنا مَنْزِلاً كَريماً إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ».

قال أبو مخنف: فحدّثني جعفر بن حذيفة الطائي ـ قد عرف سعيد بن شيبان الحديث ـ قال: دعا محمد بن الأشعث أرسل إياس بن العثل الطائي من بني مالك بن عمرو بن ثمامة، وكان شاعراً، كان لمحمّد زوّاراً فقال له: ألق حسينا فأبلغه هذا الكتاب، وكتب فيه الذي أمره ابن عقيل وقال له: هذا زادُك وجهازك، ومتعة لعيالك؛ فقال: من أين لي براحلة، فإنّ راحلتي قد أنضيتها؟ قال: هذه راحلة فاركبها برحلها، ثم خرج، فاستقبله بزبالة لأربع ليالٍ وأخبره الخبر وبلّغه الرسالة.

فقال له الحسين عليه السلام:

«كُلُّ ما حُمَّ نازِلٌ، وَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُ أنْفُسَنا وَفَسادَ أمَّتِنا».

لقاء الإمام عليه السلام مع الفرزدق

ثمّ أنه سار فلقيه الفرزدق فسلّم عليه ثمّ قال: يا بن رسول الله كيف تركن إلى أهل الكوفة وهم الذين قتلوا ابن عمك مسلم بن عقيل وشيعته؟

قال: فاستعبر الحسين عليه السلام باكيا، ثمّ قال:

«رَحِمَ اللهُ مُسْلماً فَلَقَدْ صارَ إلى رَوْحِ اللهِ وَرَيْحانِهِ وَجَنَّتِهِ وَرِضْوانِهِ، ألا أنَّهُ قَدْ قَضى ما عَلَيْهِ وَبَقِيَ ما عَلَيْنا».

ثم أنشأ يقول:

فَإنْ تَكُنِ الدُّنْيا تُعَدُّ نَفيسَةً
فَدارُ ثَوابِ اللهِ أعْلى وَأنْبَلُ
وَإنْ تَكُنِ الأبْدانُ لِلْمَوْتِ أنْشِئَتْ

فَقَتْلُ امْرِئٍ بِالسَّيْفِ فِي اللهِ أَفْضَلُ
وَإِنْ تَكُنِ الأَرْزَاقُ قِسْماً مُقَدَّراً
فَقِلَّةُ حِرْصِ المَرْءِ فِي الرِّزْقِ أَجْمَلُ
وَإِنْ تَكُنِ الأَمْوالُ لِلتَّرْكِ جَمْعُها
فَما بالُ مَتْرُوكٍ بِهِ الحُرُّ يَبْخَلُ
عَلَيْكُمْ سَلامُ اللهِ يا آلَ أَحْمَدَ
فَإِنِّي أراني عَنْكُمْ سَوْفَ أَرْحَلُ
وَإِنْ كانَتِ الأَفْعالُ يَوْماً لأَهْلِها
كَمالاً فَحُسْنُ الخُلْقِ أَبْهى وَأَكْمَلُ

وفي رواية أنه عليه السلام قال لبنت مسلم عليه السلام:

«يا إِبْنَتي أنا أَبُوكِ وَبَناتي أَخَواتُكِ».

ومضى ملاقاته عليه السلام مع الفرزدق في منزل الصفاح أيضا، ثم سار إلى القاع، ومن القاع إلى العقبة، فلقيه شيخ من بني عكرمة يقال له عمر(و) بن لوذان، قال له: أين تريد؟

قال له الحسين عليه السلام:

«الكُوفَةَ».

فقال له الشيخ: أنشدك الله لما انصرفت، فو الله ما تقدم إلاّ على الأسنّة، وحدِّ السيوف، وإنّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لوكانوا كفوك مؤنة القتال ووطأوا لك الأشياء، فقدمت عليهم، كان ذلك رأياً، فأمّا على هذه الحال التي تذكر فإنّي لا أرى لك أن تفعل.

فقال له عليه السلام:

«يا عَبْدَ اللهِ لَيْسَ يَخْفَى عَلَيَّ الرَّأْيُ وَلكِنَّ اللهَ تَعالى لا يُغْلَبُ عَلى أَمْرِهِ».

ثم قال عليه السلام:

«وَاللهِ لا يَدَعُونَني حَتّى يَسْتَخْرِجُوا هذِهِ العُلْقَةَ مِنْ جَوْفي، فَإِذا فَعَلُوا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يُذِلُّهُمْ، حَتّى يَكُونُوا أَذَلَّ فِرَقِ الأُمَمِ».

وقال ابن قولويه: حدّثني جماعة مشايخي منهم علي بن الحسين ومحمد بن الحسن، عن سعد، عن أحمد بن محمد ومحمد بن الحسين بن إبراهيم بن هاشم، جميعاً عن الحسين بن علي بن فضال، عن أبي جميلة المفضل بن صالح، عن شهاب ابن عبد ربّه، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: لمّا صعد الحسين عليه السلام عقبة البطن قال لأصحابه:

«ما أراني إلاّ مَقْتولاً».

قالوا: وما ذاك يا أبا عبد الله؟ قال عليه السلام:

«رُؤْيا رَأَيْتُها فِي المَنامِ».

قالوا: وما هي؟ قال عليه السلام:

«رَأَيْتُ كِلاباً تَنْهَشُني أَشَدُّها عَلَيَّ كَلْبٌ أَبْقَعُ».

ثم سار من العقبة قاصداً واقصة، وسار من واقصة حتى انتهى إلى القرعاء بسيره فمرّ بها ولم ينزلها حتى أتى مغيثة ولم ينزل بها حتى نزل شراف فلمّا كان في السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء فأكثروا ثم ساروا منها، فرسموا صدر يومهم حتى انتصف النهار.

ثم إنّ رجلاً قال: الله أكبر! فقال الحسين عليه السلام:

«اللهُ أَكْبَرُ، مِمَّ كَبَّرْتَ؟».

قال: رأيت النخل، فقال له الأسديّان عبد الله بن سليم والمذرى بن المشمعل: إنّ هذا المكان ما رأينا به نخلة.

فقال الحسين عليه السلام:

«فَما تَرَيانِهِ رَأى؟».

قلنا: نراه رأى هوادي الخيل، أي رؤوسها، فقال عليه السلام:

«وَأَنا وَاللهِ أَرى ذلِكَ».

ثم قال عليه السلام:

«ما لَنا مَلْجَأٌ نَلْجَأُ إِلَيْهِ فَنَجْعَلُهُ في ظُهُورِنا وَنَسْتَقْبِلُ القَوْمَ بِوَجْهٍ واحِدٍ».

فقلنا له: بلى هذا ذو حسم إلى جنبك تميل إليه عن يسارك، فإن سبقت إليه فهو كما تريد، فأخذ إليه ذات اليسار وملنا معه، فما كان بأسرع من أن طلعت علينا هوادي الخيل، فتبيناها وعدلنا فلما رأونا عدلنا عن الطريق عدلوا إليه كأنّ أسنتهم اليعاسيب وكأنّ راياتهم اجنحة الطير.

فاستبقنا على ذي حسم فسبقناهم إليه، وأمر الحسين عليه السلام بأبنيته فضربت، وجاء القوم زهاء ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمي حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين عليه السلام في حرّ الظهيرة والحسين عليه السلام وأصحابه معتمون متقلدون أسيافهم، فقال الحسين عليه السلام لفتيانهم:

«إِسْقُوا القَوْمَ وَأَرْوُوهُمْ مِنَ الماءِ وَرَشِّفُوا الخَيْلَ تَرْشيفاً».

ففعلوا وأقبلوا يملأون القصاع والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس فإذا عبّ فيها ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقوا آخر، حتى سقوها كلها.

فقال: علي بن الطعان المحاربي: كنت مع الحرّ يومئذ، فجئت في آخر من جاء من أصحابه فلما رأى الحسين عليه السلام ما بي وفرسي من العطش قال:

«أَنِخِ الرّاوِيَةَ».

والراوية عندي السقاء، ثم قال:

«يا بْنَ الأَخِ أَنِخِ الْجَمَلَ».

فأنخته فقال عليه السلام:

«إِشْرَبْ».

فجعلت كلما شربت سال الماء من السقاء، فقال الحسين عليه السلام:

«إِخْنِثِ السِّقاءَ».

أي اعطفه، فلم أدر كيف أفعل، فقام، فخنثه فشربت وسقيت فرسي.

وروى: لما انتصف النهار واشتدت الحرّ ـ وكان ذلك في القيظ ـ ترأت لهم الخيل، فقال الحسين عليه السلام لزهير بن القين:

«أَما ها هُنا مَكانٌ يُلْجأ إِلَيْهِ أَوْ شَرَفٌ نَجْعَلُهُ خَلْفَ ظُهُورِنا وَنَسْتَقْبِلُ القَوْمَ مِنْ وَجْهٍ واحِدٍ؟».

قال له زهير: بلى، هذا جبل ذي جشم، يسرةُ عنك، فمِل بنا إليه، فإن سبقت إليه فهو كما تحبّ.[1]

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٣٤٨ ـ ٣٥٤.



الحلقة الثانية

التوحيد في القرآن

عزيزي القارئ تناولنا في الحلقة الأولى من موضوع (التوحيد في القرآن) مراتب التوحيد وهل يجب على من يريد أن يصبح موحدا أن يظفر بجميع المراتب من التوحيد أم تكفيه المرتبة الأولى منه؟ فالجواب كالتالي:

إذا كانت المرتبة الأولى من التوحيد كافية، أي يكفي الإنسان ليصبح موحّداً أن يعتقد بأنّ واجب الوجود واحد، أما الخالقية والربوبية والمعبودية فقد تكون للآخرين فسيكون من الموحدين من يعتقد بأنّ الموجود الذي وجوده من ذاته هو الله، وأما العالم فهو من خلق آخرين، وصحيح أنّ هذا الاعتقاد متناقض ولكن هذا شيء آخر، فكثير من العقائد يلزم منها التناقض، ولكنّ الشخص المعتقد غير ملتفت إلى كون هذين الاعتقادين غير منسجمين ولهذا فهو يعتقد بهما معاً نتيجة لنقص معرفته ولعدم وضوح رؤيته.

وسيكون من الموحدين بطريق أولى من يعتقد بأنه لا خالق للعالم سوى الله ولكنه بعد أن خلقه الله فقد ترك أمر تدبيره إلى بعض مخلوقاته، أو أن ذلك لا يحتاج إلى إذن، فعندما جاءت هذه الموجودات إلى هذا العالم تولت أمر تدبيره بصورة ذاتية وانتزعت ذلك من يد الله.

ومن الملاحظ أنّ عقائد الشرك على طول مسيرة التاريخ تتعلق بهذا الموضوع، وحتى المشركون في عصر صدر الإسلام الذين يقول القرآن بشأنهم: ((إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ))، ((وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ)).

لأنهم قد أخرجوا المسلمين من ديارهم - حتى هؤلاء المشركون لم يكونوا يعتقدون أنّ للعالم أكثر من خالق، وإنما هم يقولون للعالم عدد من المديرين، وهم الملائكة الذين يعتبرونهم بنات الله، وتقدير عددهم

يعتمد على مدى كرم هؤلاء، ولا يصنعون الأصنام ولا يعبدونها إلاّ من أجل أن تقربهم إلى هذه الملائكة، لأنّ كل واحدٍ منها تمثال لملك، ولما كانت بنات الله عزيزات لديه فهو لا يردّ لهنّ رغبة، وإذا أردن منه شيئاً فإنه لا يخيب لهنّ أملاً، وعلى هذا فستصبح الملائكة شفيعاً لهم عند الله:

((مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ))، و((هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ)).

أي أنّ المشركين من العرب كانوا مؤمنين بوجود الله:

((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ)).

فكان شركهم إذن في العبادة والربوبية، وكذا حال المشركين في عصر يوسف عليه السلام، وهو لم يقل: أخالقون متعددون خير أم خالق واحد، بل قال عليه السلام حسب ما ينقل القرآن:

((ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ)).

ويظهر من هذا أنّهم كانوا مشركين في الربوبية.

أهؤلاء موحّدون أم مشركون من وجهة نظر الإسلام؟

من يعتقد بأنّ الخالق واحد والأرباب متعددون، أصحاب الاختيار متعددون، للأرض رب، وللحيوانات رب، لليابسة رب وللبحار رب، ولكنّ هذه جميعاً قد خلقها الله، أيكون هذا موحّداً أم مشركاً حسب المقاييس السلامية؟

لا شك أنه مشرك ولا يكفي التوحيد في الخالقية.

أما إذا اعتقد الإنسان بأن المدبّر التكويني للعالم واحد، فالله الخالق للعالم هو المدبّر له تكوينياً، ولكنه يعتقد إلى جانب ذلك بأن لبعض الأفراد الحق في وضع القوانين للناس، وتجب عليهم الطاعة لها فهي مثل الطاعة لله، أحيانا ينزل الله قانوناً ويضع بعض الأشخاص قانوناً في عرض قوانين الله، ويلزمون الناس بتنفيذه، ولابدّ عندئذٍ من الطاعة لله ولهم فهما واجبتان، هذاهوالشرك في الربوبية التشريعية:

((ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ)).

لقد كان اليهود والنصارى معتقدين بأنّ مسؤولي الأديرة والكنائس يتمتعون بحقّ التشريع وسن القوانين، أو تغيير الأحكام الإلهية والتصرف فيها، ولا يزال هذا الحق حتى الآن ممنوحاً لهم، فللشورى المسيطرة على الكنيسة الكاثوليكية الحق في أن تحلّ شيئاً أو تحرّمه، مثلاً: كان الطلاق إلى ما قبل فترة غير طويلة محرّماً في المذهب الكاثوليكي، فإذا تزوّج رجل وامرأة فسيظلان زوجين إلى الأبد، ولا سبيل لهما إلى الطلاق، ولكنّ الطلاق أجيز أخيراً في بعض الموارد من قبل تلك الشورى الكنسية، ووضع القانون تحت تصرفهم، ما هو رأي الدين المسيحي؟ ما قالته الشورى الكنسية هو الدين المسيحي.

وهؤلاء أنفسهم تتغير غداً آراؤهم فيتغيّر معها الدين أيضاً، وهو نفسه ذلك الدين القديم، ولكنه يصبح بهذا الشكل في هذا الزمان، إنّ هذه العقيدة شرك في الربوبية التشريعية، والظاهر أنّ القرآن ينظر إلى هذا الموضع عندما ينعى على اليهود والنصارى اتّخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، ولا ينصرف ظاهر الآية إلى أنهم يعتقدون مثلاً بأنّ البابا هو الخالق للعالم، لأنه لم يكن بين اليهود والمسيحيين مثل هذه العقيدة، بل ينصرف إلى حقّ التقنين الأصيل الذي كانوا يعتقدون به ويقولون إن طاعته واجبة، ويؤدّي بهم هذا إلى الاعتقاد بأنّ هناك من يستحق العبادة غير الله، وهو اعتراف بآلهة غير الله.

أما إذا رجعنا إلى القرآن الكريم وتأملنا فيه واستفتيناه عن النصاب اللازم ليصبح الإنسان موحداً فسيكون الجواب: إنّ الموحّد من وجهة نظر القرآن هو كل من يعترف بأن واجب الوجود منحصر

بالله، وهو تعالى وحده الخالق والرب التكويني والرب التشريعي والإله المعبود، ولما كان الاعتقاد بالألوهية واقعاً في الأخير لذا أصبح شعار الإسلام (لا إله إلا الله) أي إذا تم لنا الاعتقاد بالألوهية فمن المؤكد أنّ ما قبله تامّ وهو من باب (إذا حصلنا على المئة فالتسعون قطعاً في أيدينا).

إذن نصب التوحيد في القرآن هو الاعتقاد بهذه الأمور مجتمعةً ومنتهية بالتوحيد في الألوهية، فمن توفرت فيه كان موحّداً ومسلماً وله السعادة في الآخرة، أما ما دون ذلك فهو ليس بمقبول، يبقى علينا أن نعرف حكم ما فوق ذلك، وللجواب نقول: إنه ممتاز جدّاً، وعلى الإنسان أن يكدح ليصل إليه فترتفع درجة تكامله، وكلما ارتقى الإنسان في سلّم التكامل ارتفعت درجة توحيده، ونحن نعلم أن درجة التوحيد هي معيار الفضيلة عند التقييم حسب المقاييس الإسلامية.

أما السؤال هنا:

إذا اعترف شخص بالتوحيد في الخالقية ولكنه أنكر التوحيد في الربوبية، ثم وجدنا شخصاً آخر ينكرهما معاً، أيحقّ لنا أن نقارن بينهما ونقول إن كل واحد منهما في مرتبة من الكمال والفضيلة تختلف عن مرتبة الآخر، فلأحدهما مثلاً عشر درجات من الفضيلة وللآخر عشرون، أم أن مجموع مراتب التوحيد إذا انضمت إلى بعضها وحققت النصاب فعند ذلك تصبح منشأ للأثر، وأما إذا لم تصل إلى هذا الحد فليس لها أيّ أثر؟

قد يبدو أن هذه سلسلة مراتب وكل واحد منها يحقّق أثره، فالمنكر لله حتى بعنوان أنه واجب الوجود يحتلّ منزلة دانية جداً، أما الذي يعتبر به تعالى بعنوان أنه واجب الوجود فهو قد ظفر بجانب من الحقيقة وله شيء من الكمال، وهو أحسن من سابقه، وهكذا نتصاعد حتى نصل إلى المعتقد بالتوحيد في الألوهية.

ولكن هل تؤيد النصوص القرآنية هذا الجواب السطحيّ؟

كلا، لا يستفاد من القرآن أنّ من نال بعض مراتب التوحيد فهو أحسن حالاً ممن يفقدها جميعاً، فلعلّ موجوداً قد نال أربع مراتب من التوحيد دون المرحلة الخامسة وهو أسوأ حالاً حتى من المحروم من المرحلة الأولى للتوحيد، وقد ينتابنا العجب لأوّل وهلة من هذا الأمر، ولكنّ هذا العجب سرعان ما يتبدّد إذا استعرضنا ما يؤيّد هذه الدعوى من نصوص القرآن الكريم، وأوضح مصاديق هذا الموضوع في القرآن هو قصة إبليس، ونحن لا نبحث هنا هل أنّ إبليس موجود حقيقي أم هو أسطورة؟ هل هو مستقل عن الإنسان أم هو بعدٌ وجزء من الإنسان؟

بل نعتقد أن لإبليس وجوداً مستقلاً، وقد كان له وجود حقيقي وخارجي قبل أن يوجد الإنسان، ويتميز بعمر طويل، فقصة إبليس التي تكرّر ذكرها في القرآن الكريم وأوليت اهتماماً خاصاً فيه ليست أسطورة لا ثمرة فيها، وإنما القرآن يهتمّ بها لأنها شيء مهمّ جداً ولابدّ أن نستفيد منها، لقد كان إبليس معتقداً بخالقية الله بدليل أن الله لما سأله بنصّ القرآن:

((قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ)).

أجاب إبليس:

((قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ)).

ففي هذه المكالمة لا ينكر إبليس خالقية الله، وإنما هو يعتبر بأن الله موجود وهو خالق العالم ومن ضمنه الشيطان والإنسان.

وهل هو معتقد بربوبية الله؟

نعم، لأنه يقول:

((قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ)).

بل هو يعتقد أيضاً بالمعاد، لأنه عندما قال الله له:

((قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ)).

فقد أجاب إبليس:

((قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ)).

إذن كان إبليس معتقداً بخالقية الله وربوبيته ومعتقداً بيوم القيامة، ولو كان كل واحد من هذه المعتقدات كافياً لتحقيق درجة من الكمال والفضيلة لأصبح إبليس متمتعاً بدرجات من الفضيلة والكمال، ويتحدث الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة عن إبليس قائلاً:

«وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة، لا يدرى أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة».

ولنفرضها من سنيّ الدنيا، فعبادة إبليس لله قبل خلق آدم ستة آلاف سنة ليس بالشيء القليل، إذن ماذا كان ينقصه؟ كان ينقصه هذا الأمر: وهو أنّ ما يقوله الله لابدّ من قبوله، فالطاعة لله ترفض النقاش، لأنّه هو الله، وجميع الوجود له، فأوامره تنفذّ من دون سؤال، ولا معنى إطلاقاً لأن يقوم مخلوق بإثبات وجوده أمام الله، والإيمان بالربوبية التشريعية يفرض على الإنسان وكل مخاطب أن يستسلم للأوامر الإلهية من دون سؤال، ولا يحقّ لأيّ أحد أن يناقش الله ويقول له: أمرك هذا ـ والعياذ بالله ـ ليس في محله، لأنه إذا كان لموجود أن يخضع لموجود آخر ويسجد له فالخاضع لابدّ أن يكون أخفض منزلة، وأنا أفضل من آدم فلابدّ أن يسجد هو لي، لا أنا أسجد له، ومعنى هذا الكلام أنك يا ربّ ـ والعياذ بالله ـ قد أصدرت أمراً في غير محله، وليس من حقك ـ والعياذ بالله ـ أن تأمرني بالسجود لآدم، وأنا أطالبك بالدليل، فلأي سبب أنا أسجد له؟

لا يوجد في القرآن ولا في أيّ كتاب سماوي ولا في الروايات شيء يذكر بعنوان أنه السبب في سقوط إبليس سوى هذا الذنب وجذوره النفسية، فمنشأ سقوطه هو تمرده على أمر الله، ومن الطبيعي أن يكون لهذا التمرّد جذور نفسية تعتبر المنشأ له، وهي التكبّر والحسد لآدم.

أما إذا قلنا بأن من يظفر بمرتبة من مراتب التوحيد فهو أشرف ممن يفتقدها فإنه لزم منه أن يصبح إبليس أرفع بكثير ممن لا يؤمن بالله أساساً، بينما الأمر ليس كذلك: فالشخص الذي لم يؤمن بالله وعاش في هذا العالم فترة قصيرة من الزمن وقد لا يكون غارقاً خلالها في الأعمال السيئة الأخرى لا يصبح رئيس أهل جهنم، ويتسلّم زمام الرئاسة فيها إبليس الذي عبد الله ستة آلاف سنة واعتقد بعدد من مراتب التوحيد ومعه أتباعه، يجدون أمامهم أحطّ درجات جهنم، ولا نقصد أنّ هذه المنزلة مقصورة عليه، فلعلّ له شركاء من شياطين وأبالسة الإنسان الذين لا يقلّون عن أولئك، ولكنه على أيّ حال لم ينفع إبليس إيمانه بخالقيّة الله وربوبيته التكوينية، ولم ترفعه عبادته الطويلة الماضية، لماذا؟ لأنّ توحيده لم يصل إلى حدّ النصاب، فهو كالمركب الذي يفتقر إلى عنصر أصلي من عناصره المساهمة في تركيبه، وهو لا فائدة منه ما لم تتوفّر فيه كل أجزائه الأساسية، ولعلّ مركباً يؤثّر أثراً مضرّاً إذا فقد جزءاً منه، فهناك بعض الأدوية التي إذا لم تضف مادة معينة إلى تركيبها فإنها ليست غير مفيدة فحسب، وإنما هي قد تكون ضارة.

إذن هذه المجموعة من عقائد التوحيد التي تبدأ من التوحيد في الخالقية وتنتهي بالتوحيد في الألوهية تشكّل مركّباً واحداً يستطيع أن يؤثّر في سعادة الإنسان، حيث يؤدي إلى دخوله في دار الرحمة الإلهية وتمتّعه بالجنة، أما إذا فقد أيّ جزء من أجزائه فلن يكون له ذلك الأثر.[1]

---

(1) معارف القرآن لمحمد تقي المصباح: ص٦٢ ـ ٦٩.

إبليس لعنه الله في كلمات نهج البلاغة

قال الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة:«وَ اسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِه إِلَيْهِمْ فِي الاذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِه فَقَالَ سُبْحَانَهُ اسْجُدُوا لادَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النّارِ وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصالِ فَأَعْطاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ وَاسْتِتْماماً لِلْبَلِيَّةِ وَإِنْجازاً لِلْعِدَةِ فَقالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

بداية انحراف إبليس

الذي تفيده العبارة اعلاه أنّ الله قد أخذ عهد الملائكة مسبقاً بالسجود لآدم حين خلقه؛ الأمر الذي وردت الإشارات إليه في القرآن الكريم ومنها الآية (٧٠ و٧١ من سورة ص):(إِذ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَة إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طين ❖ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ). فقد كانت الملائكة تدرك أنّ الوفاء بذلك العهد إنّما يحصل حين خلق آدم وتكامله بهذه الصورة الإنسانية، ولذلك أمرهم الله سبحانه لما أتم خلقه بالسجود (اسْجُدُوا لادَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ).

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ هذا الأمر قد يكون مستغرباً لدى الملائكة ويثير اندهاشهم ولعلهم يتساهلون في امتثاله لولا تلك المقدمة بذلك العهد الذي أخذ عليهم، ولذلك أعدهم الله سبحانه لهذا الأمر مسبقاً ليعلم أنّ مثل هذه المقدمات ضرورية في الأوامر المهمّة.

الدوافع التي أدت إلى تمرد إبليس

ثم يتطرق(عليه السلام) إلى الدوافع التي وقفت وراء تمرد إبليس فقال(عليه السلام): «اعترته الحمية وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلقة النار واستوهن خلق الصلصال».

فالواقع أنّ العامل الأصلي لتمرده إنّما كان تلوثه الباطني والذي عبر عنه بالشقوة إلى جانب الكبر والغرور والحمية والأنانية التي تفرزها طبيعة ذلك الدنس الباطني والذي غلب على فكره وأعمى بصيرته ليصده عن رؤية الواقع فيغتر بخلقة النار ويراها أعظم شأناً من خلقة الطين والتراب؛ التراب الذي يعدّ مصدر جميع الخيرات والبركات والمنافع والفوائد، بالتالي حسب أن علمه ومعرفته إنّما تفوق حكمة الله. طبعاً لا يبدو هذا الحكم غريباً من الأفراد الذين يغرقون في مثل هذا الحجب؛ فالإنسان الأناني المضروب عليه بحجاب الغرور قد يرى القبة حبة والحبة قبة أحياناً، فعباقرة الفكر وجهابذة العلم إذا ما ابتلوا بالغرور والأنانية وحب الذات ربما يرتكبون أفظع الأخطاء والزلات.

فالمراد بالشقاوة هنا هي تلك الموانع الباطنية والصفات الرذيلة التي كانت لدى الشيطان، وهي الموانع والصفات الاختيارية النابعة من أفعاله السابقة وهي ليست شقوة ذاتية وغير اختيارية؛ لأنّ الشقاوة تقابل السعادة. وتعني السعادة توفير الإمكانات وتمهيد السبيل من أجل الحركة نحو الصلاح والشقاوة تعني المطبات والصعوبات التي تعترض هذا السبيل؛ والمهم أنّ كل هذه الأمور إنّما تنبع من ذات أفعال الإنسان وسائر الموجودات المختارة لا أنّها تستند إلى العوامل الجبرية والقهرية.

توعد إبليس بإغواء أبناء ادم عليه السلام

على كل حال فان إبليس قد ارتكب هذه المعصية الكبرى والخطأ الجسيم ليسقط بالمرة فيطرد من حظيرة القرب الإلهي حتى أصبح من ألعن خلق الله وأبعدهم عن رحمته بفعل تلك المعصية الخطيرة؛ غير أنّ هذه اللعنة والطرد من الرحمة لم تكن لتوقظه فتمادى في غيه وغروره واستناداً لسيرة المغرورين والمتعصبين من ذوي الأنفة والحمية فقد باشر عملاً قبيحاً آخر تمثل بتوعده بإغواء آدم وذريته، ثم سأل الله وبدافع إشباع غريزة غضبه وحسده النظرة إلى يوم القيامة ليرتكب معصية أُخرى أفدح من سابقتها (قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْني إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

فاستجاب الله له لثلاث؛ استحقاقاً للغضب، وإكمالاً لابتلاء العباد وتمحيصهم وأخيراً انجاز ما وعده به «فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة واستتماماً للبلية وانجازاً للعدة»، ولكن ليس على ضوء ما سأل، بل جعل لذلك أجلاً معيناً «فقال إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم».

ما المراد بيوم الوقت المعلوم

ذهب البعض إلى أنّ المراد بذلك انتهاء العالم وانقطاع مدّة التكليف (وعلى ضوء هذا المعنى فقد كانت الموافقة على بعض سؤال ابليس، لأنّه سأل النظرة إلى يوم القيامة بينما أجيب بالنظرة إلى ختام الدنيا).

بينما ذهب البعض الآخر أنّ المراد بذلك زمان معيّن وهو انقطاع عمر ابليس؛ الأمر الذي لا يعلمه إلاّ الله؛ وإلاّ لو أعلنه آنذاك لكان إغراءً لابليس بالتمرد وارتكاب المعاصي.

وأخيراً فقد احتمل البعض أنّ المراد يوم القيامة؛ لأنّ الآية الخمسين من سورة الواقعة عبرت باليوم المعلوم عن يوم القيامة (قُلْ إِنَّ الأَوَّلينَ وَالآخِرينَ ❖ لَمَجْمُوعُونَ إِلى ميقاتِ يَوْم مَعْلُوم).

إلاّ انّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً، لأنّه وعلى ضوء هذا التفسير قد استجيب لجميع طلباته، في حين يفيد ظاهر الآيات القرآنية أنّه لم يستجب إلاّ لبعض طلباته، أضف إلى ذلك فانّ الآية التي وردت في البحث قالت «يوم الوقت المعلوم»بينما قالت الآية الواردة في سورة الواقعة (يَوْم مَعْلُوم) فالآيتان متفاوتتان، وعليه فالتفسير الصحيح هو التفسير الأول أو الثاني. من جانب آخر فقد جاء في الحديث أنّ المراد بيوم الوقت المعلوم هو زمان ظهور إمام العصر والزمان المهدي (عج) والذي ينهي بدوره عمر ابليس.

وبالطبع فان هذا لن يؤدي إلى اجتثاث جذور الذنب والمعصية عن العالم بالمرة وتنتفي قضية الطاعة والامتحان الإلهي؛ لأنّ العامل الأصلي إنّما يكمن في هوى النفس الذي يبقى سائداً في الإنسان، بل حتى عامل انحراف الشيطان إنّما يعزى إلى هوى نفسه.

أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان

هنالك عدّة أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان وسوابقه وتمرده على الأوامر الإلهية ومن ثم امهاله حتى الزمان المعلوم،



وبالطبع فانّ المقام لا يسع الإسهاب والوقوف على التفاصيل، ولذلك سنقتصر على التعرض بأطناب لهذه المواضيع.

السؤال الأول

هل إبليس من الملائكة؟ إنّ كان الجواب بالإيجاب فلم ارتكب تلك المعصية الخطيرة مع أن الملائكة معصومون، وإن كان الجواب بالنفي في أنّه لم يكن من الملائكة، فما علة ذكره في عداد الملائكة على لسان الآيات القرآنية؟

الجواب: يقيناً لم يكن من الملائكة، فقد صرّح القرآن قائلاً: (كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)، إلاّ أنّه قد اصطف مع الملائكة أثر جهوده في الطاعة والعبودية ولذلك عد واحداً منهم، ولهذا السبب أيضاً وردت بعض خطب نهج البلاغة بما فيها الخطبة رقم ١٩٢ المسماة بالقاصعة التي عبرت بالملك عن إبليس؛ وناهيك عن ذلك فقد صرّح نفسه قائلاً: (خَلَقْتَنِي مِنْ نار) ونعلم جميعاً بأنّ الجن قد خلقوا من النار لا الملائكة، وهذا ما صرّحت به الآية الخامسة عشرة من سورة الرحمن (وَخَلَقَ الْجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نار)، وقد أشارت بعض روايات أهل البيت(عليهم السلام)إلى هذا المعنى أيضاً. أضف إلى ذلك فقد أشار القرآن إلى ذرية إبليس وولده (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) بينما ليست للملائكة من ذرية.

السؤال الثاني

كيف جاز على الله سبحانه أن يسلط إبليس على الناس حتى أنّهم سلبوا قدرة الدفاع؟ أضف إلى ذلك فما الضرورة في الإغواء والضلال؟ ومنحه تلك المدّة الطويلة من العمر والمهلة ليسعى سعيه في اغواء بني آدم وتوظيف كافة إمكاناته في سبيل تحقيق هذا الهدف؟

الجواب: أولاً: أنّ الشيطان قد خلق طاهراً عفيفاً وقد جدّ لسنوات من أجل صون قدسيته وطهّره حتى قادته طاعته وعبوديته لأن يكون في مصاف الملائكة، إلاّ أنّه في نهاية الأمر وأثر حبّه لذاته وكبره وغروره واستغلاله لحريته قد سلك سبيل الضلال فسقط إلى الحضيض.

ثانياً: من الضروري الالتفات إلى نقطة مهمّة وهي أنّ نفوذ الوساوس الشيطانية إلى باطن الإنسان ليس نفوذاً عبثياً وإجبارياً؛ بل إنّ الإنسان هو الذي يفسح المجال بإرادته واختياره لهذا النفوذ سيجعله يستحوذ على نفسه، حيث يمنح الشيطان تأشيرة الدخول إلى حدود قلبه وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: (إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ). وقال في موضع آخر (إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ).

ثالثاً: لقد تضمنت عبارات الإمام علي(عليه السلام) رداً لطيفاً رائعاً على السؤال المذكور حيث قال: «فأعطاه الله النظرة استحقاقاً لسخطه واستتماماً للبلية وانجازاً للعدة» أي أنّ الله قد أجزل عقابه بمنحه هذه المهلة من جانب لأنّ الآيات القرآنية تفيد التحذير الإلهي الشديد والمتكرر لأولئك الذين يسيرون باتجاه الذنوب والمعاصي فاذا فاد التحذير وأثّر بهم ورجعوا عن غيّهم كان ذلك خيراً وإلاّ أمهلهم ووكلهم إلى أنفسهم ليكون عذابهم أشد: (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ).

ومن جانب آخر فانّ وجود الشيطان يشكل اختباراً وامتحاناً ضخماً للناس،

وبعبارة أُخرى فانّه يمثل جسر الأفراد المؤمنين نحو السمو والتكامل. لأنّ وجود هذا العدو المقتدر بالنسبة للمؤمنين الذين يرومون انتهاج سبيل الحق ليس فقط لا يستبطن أي ضرر فحسب، بل سيكون وسيلة للتسامي والتكامل حيث إننا نعلم بأنّ السمو والتكامل إنّما يتمّ عادة في ظل التضاد وإذا ما رأى الإنسان نفسه أمام عدو شرس فانه سيوظف كافة طاقاته وقدراته ونبوغاته، وبعبارة أُخرى فان وجود هذا العدو القوي سيؤدي بالإنسان إلى ممارسة مزيد من الحركة والجهد الأمر الذي يقوده بالتالي إلى السمو والرقي والتكامل. بينما لايزيد هذا الأمر مرضى القلوب والآثمين المنحرفين إلا انحرافاً وبؤساً وشقاءً، والحق أنّهم استحقوا ذلك بما كسبت أيديهم: (لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) فالهدف هو أنّ الله يختبر أُولئك القاسية قلوبهم وفيها مرض بالقاءات الشيطان، (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ).

السؤال الثالث

كيف كانت شبهة ابليس بالتعزز بخلقة النار فيرى نفسه أفضل من آدم وبالتالي يعترض على حكمة الله؟

ونقول في الجواب أنّ حب الذات والغرور تعدّ من أضخم الحجب التي تحول دون رؤية الحقائق والواقعيات وهذا ما حصل لابليس، فلم يدفعه ذلك إلى التمرد والعصيان فحسب، بل اعترض على الحكمة الإلهية ليجعل ذلك حجة احتج بها في شرف عنصره على عنصر آدم، فكيف أسجد لهذا الموجود الذي خلقته من طين بينما خلقتني من النار، فقد ذهبت به الظنون إلى أفضلية النار على التراب، بينما لا يخفى أنّ التراب ينبوع مختلف الخيرات والبركات ومصدر جميع المواد الحيوية والمهمة والوسيلة الرئيسية لمواصلة الحياة، كما يضم في طياته أنواع المعادن والفلزات والجواهر وليس النار كذلك. صحيح أنّ النار والحرارة تعتبر من سائر الوسائل الحياتية الضرورية، لكن ممّا لاشك فيه أن الدور الأساسي إنّما تقوم به المواد الموجودة في التراب والنار ليست سوى وسيلة من أجل تكامل هذه المواد.

لقد صرّحت بعض الروايات أنّ واحدة من أكاذيب إبليس هو زعمه بأنّ النار أفضل من التراب، والحال إننا نعلم بأنّ النار عادة ما تتولد من احتكاك الأشجار أو من المواد الدهنية وانّ أصل الأشجار هو التراب، كما أنّ الدهون النباتية والحيوانية إنّما تستخرج بواسطة من الأرض. أضف إلى ذلك أنّ امتياز آدم لم يقتصر على أفضلية عنصر التراب بل تكرمته إنّما استندت إلى عامل أصلي تمثل بتلك الروح العظيمة التي نفخت فيه (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي). ولنفترض جدلاً أنّ المادة الاولى في خلقة الشيطان كانت أفضل من مثيلتها لدى آدم، فان هذا الأمر هو الآخر لا يقوى دليلاً على تمرده وعدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم بفضل تلك الروح الإلهية التي حلت فيه وأكسبته ذلك المقام العظيم، ولعل الشيطان كان يعلم بكل هذه الأُمور إلاّ أنّ الكبر والغرور والعجب وحب الذات أعمى بصره وبصيرته عن الإذعان للحق.

قال لي صاحبي:

ما علاقة عائشة بنت أبي بكر بالثريد؟ فأجبته.

قال لي صاحبي: وهو يأكل من طبق الثريد الذي كان بين يديه: لو كنت صنعت لنا طعاماً آخر غير الثريد لأني لا أحبه.

فقلت له: كل يا أخي واشكر الله على هذه النعمة فإن أناساً كثيرين لا يجدون لقمة مما هو موضوع بين يديك.

فقال صاحبي: الحمد لله ولكني أقول لو صنعت لنا طعاماً آخر لكان أطيب.

فقلت له: أراك مصرا على الاعتراض على الثريد، ألا تخاف أن تغضب عليك عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله؟

فقال صاحبي: وما علاقة عائشة بنت أبي بكر بالثريد، وما دخلها في كوني أحب الثريد أم يحبني الثريد؟

فقلت لصاحبي: وكيف لا يكون لها ارتباط ألا تعلم أن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الأطعمة؟

فضحك صاحبي من كل قلبه حتى كاد أن يغص، وهو يريد أن يسأل بصوت متقطع بالضحك، ولماذا الثريد، ومن هذا الذي يقول عنها ذلك؟

فقلت له: إننا نحن الشيعة لا نقول بذلك ولله الحمد، لكن إخواننا من أهل السنة يصححون حديثاً يروونه عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله انه قال كما في مسند أحمد مثلا (ج٣ ص١٥٦): (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام).

فسكت صاحبي عن ضحكه بعد أن علم أن الموضوع ليس مزحة كما قد توقع، وإن الأمر فيه حديث نبوي وإن أهل السنة قد صححوا هذا الحديث، وتوقف لحظة عن الكلام ثم التفت إلي مرة أخرى فقال: هل تصدق أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله قال هذا فعلاً؟ ثم لماذا الثريد دون غيره من الأطعمة اللذيذة؟

فقلت لصاحبي: نحن نعتقد بأن هذا الحديث وإن صحت بعض أسانيده عند أهل السنة إلا أن صدوره عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بعيد للغاية، لأننا نعتقد بأن هذا الحديث شأنه شأن الكثير من الأحاديث قد وضع مقابل بعض الفضائل المجمع عليها والتي قالها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في حق أهل البيت عليهم السلام.

فقال صاحبي: لحظة من فضلك، عندي سؤالان قبل أن تسترسل في الكلام، الأول هو كيف يكون الحديث صحيحاً سندا لكنه غير صحيح متناً؟ والسؤال الثاني ما هو قصدك في ان حديث الثريد وضع في مقابل بعض أحاديث الفضائل التي قيلت في حق أهل البيت فهل تذكر لي أمام أي حديث بالذات قد وضع حديث الثريد؟

قلت لصاحبي: أما السؤال الأول فإن كلمة محدثي الشيعة والسنة قد اجتمعت على أن صحة السند لا تكون دليلاً لوحدها على صحة المتن، فكم من حديث صحيح السند عند محدثي أهل السنة قد أعرضوا عنه لنكارة متنه أو مخالفته لأحاديث أخرى أو وقائع تاريخية أخرى ثابتة، وفي هذا الصدد يقول ابن حجر في (النكت على ابن الصلاح ج١ ص٤٠٤): (صحة الحديث وحسنه ليس تابعاً لحال الراوي فقط، بل لأمور تنضم إلى ذلك من المتابعات والشواهد وعدم الشذوذ والنكارة).

أما سؤالك الثاني: ثبت من البحث الطويل والمقابلة والتمحيص والتدقيق في روايات إخواننا أهل السنة وكتبهم أن هنالك أيادي خبيثة قد تلاعبت في أحاديث الفضائل التي صدرت عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في حق أهل البيت وباقي الصحابة، وثبت أيضا أن كثيراً من أحاديث الفضائل التي قيلت في حق أهل البيت عليهم السلام قد سلبت منهم وسرقت وأعطيت لأناس آخرين وهذا موضوع طويل يحتاج إلى وقت طويل.

فقال صاحبي: لنترك تفاصيل التلاعب والسرقة لفضائل أهل البيت عليهم السلام إلى وقت آخر، ولكن أخبرني فقط في قبال أي حديث من أحاديث الفضائل وضع حديث الثريد؟

فقلت لصاحبي: حديث الثريد وان فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وضع في مقابل تلك الأحاديث الكثيرة التي قالها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في حق السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام والتي نصت على كونها فضلت على سائر نساء العالمين من الأولين والآخرين، أو إنها سيدة نساء هذه الأمة وسيدة نساء أهل الجنة، وغير ذلك من الألفاظ التي صحت سندا ومتنا عند أهل السنة قبل الشيعة.

فقال صاحبي: سبحان الله فالقضية إذن أكبر من مجرد أكلة ثريد، ولكن لماذا لا يمكن لنا أن نصدق أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله قد قال ذلك لعائشة؟ ألا يوجد احتمال ولو ضعيف يرجح أن النبي الأعظم قد جعل فضل عائشة كفضل الثريد؟

فقلت لصاحبي: إن تفنيد هذا الحديث يحتاج إلى مقدمتين، المقدمة الأولى: هي إن عائشة كما هو معروف عنها كانت شديدة الغيرة من سائر نساء النبي الأعظم ومن إبنته وحتى من الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وتوجد شواهد كثيرة على هذه الحقيقة لا مجال هنا لاستقصائها.

والمقدمة الثانية إن النبي صلى الله عليه وآله كان كثير المزاح مع زوجاته وأصحابه وغيرهم، وهو أمر يستغني عن البرهان لشهرته، ولكنني أقدم لك قول ابن هشام في (السيرة النبوية ج ٣ ص٤٤٠) لتتأكد من ذلك: (كان صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم يمازح أصحابه قال وقد جاء إني لأمزح ولا أقول إلا حقا لكن جاء عن عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم مزاحا وكان يقول إن الله تعالى لا يؤاخذ المزاح الصادق في مزاحه وجاء عن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم ما رأيت أحدا أكثر مزاحا من رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كانت في النبي صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم دعابة وعن بعض السلف كان للنبي صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم مهابة فكان يبسط الناس بالدعابة...).

والنبي الأعظم صلى الله عليه وآله كان يعلم بشديد غيرتها التي كانت تشتد وتتعاظم كلما سمعت النبي الأعظم صلى الله عليه وآله يصف السيدة خديجة ضرتها وإبنتها السيدة الزهراء صلوات الله وسلامه عليهما بأنهما سيدتا نساء العالمين تارة، وسيدتا نساء أهل الجنة تارة ثانية، وإنّهما فضّلتا على سائر نساء العالمين من الأولين والآخرين حتى على مريم العذراء وآسية بنت مزاحم صلوات الله وسلامه عليهما.

فكان النبي الأعظم صلى الله عليه وآله يرى شدة الغيرة فيها والحرص على أن يكون لها ألقاب نظير ما لسيدتي نساء العالمين من ألقاب، ومن شدة رحمة النبي صلى الله عليه وآله وعطفه ورقة قلبه، قال لها حديث الثريد ليطيب قلبها من جهة، وليخفف غيرتها من جهة ثانية، وليوضح للأمة أن هذا الحديث بهذا اللفظ هو من قبيل دعاباته صلى الله عليه وآله.

وإلا لو كان لعائشة فضل حقيقي تتفاضل به على سائر النساء لعبر النبي صلى الله عليه وآله بغير هذا التعبير، ولقال فضلت بالتقوى أو بالعلم أو الطاعة أو الخلق أو غير ذلك من جهات الفضل التي يتفاضل بها أبناء آدم بعضهم على بعض، ولما عجز النبي الأعظم صلى الله عليه وآله عن الإتيان بلفظ يشعر السامع بأن قصده جدي وليس بدعابة كما الحال بالنسبة لحديث الثريد، وكيف يعجز عن ذلك وهو سيد البلغاء وأفصح العرب لسانا وبيانا، فلما لم يفعل النبي صلى الله عليه وآله ذلك، وجاء بلفظ يعلم كل من سمعه بأنه مزحة ودعابة من دعاباته صلى الله عليه وآله، علمنا انه لم يكن يقصد المعنى الحقيقي للتفضيل، وأن تفضيله لعائشة وتشبيهها بالثريد دون الجوهر أو الذهب أو الكبريت الأحمر وغير ذلك هو تفضيل صوري يقصد منه الدعابة وجبر الخاطر وتخفيف الغيرة.

فقال صاحبي: فعلاً ما تقول لأن حديث الثريد لو تأمل فيه المتأمل لوجده للهزل هو أقرب منه إلى الجد، ولكن القوم استغلوا هذا المزاح ليقلبوه إلى حقيقة، والله يعلم كيف حاول أنصار عائشة الاستفادة منه لصالح عقيدتهم ومذهبهم.

فقلت لصاحبي: صدقت يا أخي فالقوم حاولوا وبكل ما أوتوا من قوة الاستفادة من حديث الثريد ليصنعوا لعائشة صورة خيالية مبهرة، وليحولوا حديث الثريد من حديث هزلي إلى أعظم فضيلة من فضائلها، كما فعل المباركفوري في (تحفة الأحوذي ج١٠ ص٢٦٠ ـ ٢٦١): (قوله «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»...فضرب به مثلا ليؤذن بأنها أعطيت مع حسن الخلق والخلق وحلاوة النطق فصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل والتحبب إلى البعل فهي تصلح للتبعل والتحدث والاستئناس بها والإصغاء إليها وحسبك أنها عقلت عن النبي ما لم تعقل غيرها من النساء وروت ما لم يرو مثلها من الرجال).

وكما فعل ابن عبد الهادي في (حاشية السندي على النسائي ج ٧ ص ٦٨: (قوله كفضل الثريد هو أفضل طعام العرب لأنه مع اللحم جامع بين اللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤونة في المضغ فيفيد أنها جامعة لحسن الخلق وحلاوة المنطق ونحو ذلك).

فقال صاحبي: هذا الكلام والله مخجل جداً لا يصدر عن جاهل حتى وهو تحميل واستنتاجات من صنع الخيال، وليس في الحديث شيء يشير إلى ما استنتجوه لا من قريب ولا من بعيد، ولو رجع الإنسان وقاس بمنطق الإنصاف لا بمنطق التعصب والتحيز لوجد أن لكل نوع من أنواع الطعام فوائد ومنافع إن لم تكن أكثر من الثريد فهي مساوية له قطعاً، ولكن هل أقر جميع أهل السنة وعلمائهم بهذه التأويلات الباطلة؟

فقلت لصاحبي: الحمد لله الذي جعل من محدثي أهل السنة من يقر بخطأ هذه التأويلات الباطلة كما أقررنا نحن، فابن حجر رد في (فتح الباري ج ٦ ص ٣٢١) على هؤلاء المتفلسفين بقوله: (وكل هذه الخصال لا تستلزم ثبوت الأفضلية له من كل جهة فقد يكون مفضولاً بالنسبة لغيره من جهات أخرى).

ثم إن ثبوت الفضل للثريد على سائر الطعام لو ثبت فعلاً، لكان في ذلك الزمن فقط دون الأزمنة اللاحقة والحالية، فالثريد في هذا الزمن ليس هو الأفضل قطعاً ولا من أفضلها، فقد وجدت في هذا الزمن أصناف وأنواع للطعام تفوق الثريد جودة ولذة وذوقاً، والى هذا المعنى يشير العيني في (عمدة القاري ج ١٦ ص ٢٥١) بقوله: (والظاهر أن فضل الثريد على سائر الطعام إنما كان في زمنهم لأنهم قلما كانوا يجدون الطبيخ، ولا سيما إذا كان باللحم، وأما في هذا الزمان فأطعمة معمولة من أشياء كثيرة متنوعة فيها من أنواع اللحوم ومعها أنواع من الخبز الحواري، فلا يقال: إن مجرد اللحم مع الخبز المكسور أفضل من هذه الأطعمة المختلفة الأجناس والأنواع، وهذا ظاهر لا يخفى).

والمفروض أن حديث الثريد لو كان حقيقيا لانطبق صدقه على كل زمان، حتى زماننا، وهذا لم يحصل فيتبين لنا أن حديث الثريد المزعوم إما هو مكذوب على الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وإما قد صدر عنه من باب المزاح، فصيره القوم حقيقة بعد أن عجزوا عن إيجاد ما يساوي أو يشابه أحاديث السيادة والسؤدد لسيدتي نساء العالمين وسيدتي نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة صلوات الله وسلامه عليهما.

فقال صاحبي: صدقت وجزيت خيرا على هذا التوضيح، والآن أنا مصر على ترك أكل الثريد وأنا ادعوك إلى ذلك المطعم القريب من بيتنا الآن لنأكل بعض المشويات وليغضب مني من يغضب.



كيف يتم علاج الوساوس

لو أمكن العلاج في القطع الكلي للوساوس فإنما يتم بأمور ثلاثة:

الأول: سد الأبواب العظيمة للشيطان في القلب، وهي الشهوة، والغضب، والحرص، والحسد، والعداوة، والعجب، والحقد، والكبر، والطمع، والبخل، والخفة، والجبن، وحب الحطام الدنيوي الداثر، والشوق إلى التزين بالثياب الفاخرة، والعجلة في الأمر، وخوف الفاقة والفقر، والتعصب لغير الحق، وسوء الظن بالخالق والخلق... وغير ذلك من رؤوس ذمائم الصفات ورذائل الملكات، فإنها أبواب عظيمة للشيطان، فإذا وجد بعضها مفتوحاً يدخل منه في القلب بالوساوس المتعلقة به، وإذا سدت لم يكن له إليه سبيل إلا على طريق الاختلاس والاجتياز.

الثاني: عمارة القلب بأضدادها من فضائل الأخلاق وشرائف الأوصاف، والملازمة للورع والتقوى، والمواظبة على عبادة ربه الأعلى.

الثالث: كثرة الذكر بالقلب واللسان، فإذا قلعت عن القلب أصول ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الأبواب العظيمة للشيطان، زالت عنه وجوه سلطنته وتصرفاته، سوى خطراته واجتيازاته، والذكر يمنعها ويقطع تسلطه وتصرفه بالكلية، ولو لم يسد أبوابه أولاً لم ينفع مجرد الذكر اللساني في إزالتها، إذ حقيقة الذكر لا يتمكن في القلب إلا بعد تخليته عن الرذائل تحليته بالفضائل، ولو لا هما لم يظهر على القلب سلطانه، بل كان مجرد حديث نفس لا يندفع به كيد الشيطان وتسلطه، فإن مثل الشيطان مثل كلب جائع، ومثل هذه الصفات المذمومة مثل لحم أو خبز أو غيرهما من مشتهيات الكلب، ومثل الذكر مثل قولك له: إخسأ.

ولا ريب في أن الكلب إذا قرب إليك ولم يكن عندك شيء من مشتهياته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك: إخسأ، وإن كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول ما لم يصل إلى مطلوبه.

فالقلب الخالي عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر وأما القلب المملوء منه فيدفع الذكر إلى حواشيه، ولا يستقر في سويدائه، لاستقرار الشيطان فيه.

وأيضاً الذكر بمنزلة الغذاء المقوي، فكما لا تنفع الأغذية المقوية ما لم ينق البدن عن الأخلاط الفاسدة ومواد الأمراض الحادثة، كذلك لا ينفع الذكر ما لم يطهر القلب عن الأخلاق الذميمة التي هي مواد مرض الوسواس، فالذكر إنما ينفع للقلب إذا كان متطهراً عن شوائب الهوى ومنوراً بأنوار الورع والتقوى، كما قال سبحانه:

((إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ)).[1]

وقال سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم:

((إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)).[2]

ولو كان مجرد الذكر مطرداً للشيطان لكان كل أحد حاضر القلب في الصلاة، ولم يخطر بباله فيها الوساوس الباطلة والهواجس الفاسدة، إذ منتهى كل ذكر وعبادة إنما هو في الصلاة مع أن من راقب قلبه يجد أن خطور الخواطر في صلاته أكثر من سائر الأوقات، وربما لا يتذكر ما نسيه من فضول الدنيا إلا في صلاته، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على قلبه ويصير مضماراً لجولانهم، ويقلبونه شمالاً ويميناً بحيث لا يجد فيه إيماناً ولا يقيناً ويجاذبونه إلى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين، ويمرون به في أودية الدنيا ومهالكها، ومع ذلك كله لا تظنن أن الذكر لا ينفع في القلوب الغافلة أصلاً، فإن الأمر ليس كذلك، إذ للذكر عند أهله أربع مراتب كلها تنفع الذاكرين، إلا أن لبه وروحه والغرض الأصلي من ذلك المرتبة الأخيرة:

الأولى: اللساني فقط.

الثانية: اللساني والقلبي، مع عدم تمكنه من القلب، بحيث يحتاج القلب إلى مراقبته حتى يحضر مع الذكر، ولو خلي وطبعه استرسل في أودية الخواطر.

الثالثة: القلبي الذي تمكن من القلب واستولى عليه، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة، بل احتاج ذلك إلى سعي وتكلف، كما احتيج في الثانية إليهما في قراره معه ودوامه عليه.



الرابعة: القلبي الذي يتمكن المذكور من القلب بحيث انمحى عند الذكر، فلا يلتفت القلب إلى نفسه ولا إلى الذكر، بل يستغرق بشراشره في المذكور، وأهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات إلى الذكر حجاباً شاغلاً.

وهذه المرتبة هي المطلوبة بالذات والبواقي مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض لكونها طرقاً إلى ما هو المطلوب بالذات.

قطع الوساوس

السر في توقف قطع الوساوس بالكلية على التصفية والتخلية أولاً، ثم المواظبة على ذكر الله.

إن بعد حصول هذه الأمور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو أرادت صرفهما عن الوساوس لأمكنها ذلك، ولم تتمكن القوتان من الذهاب في أودية الخواطر بدون رأيها، وإذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت إلى ضبطهما كلما أرادتا الخروج عن الانقياد والذهاب في أودية الوساوس وتكرر منها هذا الضبط، حصل لهما ثبات الانقياد بحيث لم يحدث فيهما خاطر سوء مطلقاً، بل لم يخطر فيهما إلا خواطر الخير من خزائن الغيب وحينئذٍ تستقر النفس على مقام الاطمئنان، وتنسد عنها أبواب الشيطان وتنفتح فيها أبواب الملائكة، ويصير مستقرها ومستودعها، فتستضاء بشروق الأنوار القدسية من مشكاة الربوبية، ويشملها خطاب:

((يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ)).[٣]

ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها، وتقابلها النفس المنكوسة المملوءة من الخبائث الملوثة بأنواع الذمائم والرذائل، وهي التي انفتحت فيها أبواب الشيطان وانسدت منها أبواب الملائكة، ويتصاعد منها دخان مظلم إليها، فيملأ جوانبها ويطفئ نور اليقين ويضعف سلطان الإيمان، حتى تخمد أنواره بالكلية، ولا يخطر فيها خاطر خير أبداً، وتكون دائماً محل الوساوس الشيطانية ومثلها لا يرجع على الخير أبداً، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ، ولو اسمعت الحق عميت عن الفهم وصمت عن السمع.

وإلى مثلها أشير بقوله تعالى:

((أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا)).[٤]

وبقوله سبحانه:

((خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ)).[٥]

وبقوله عزّ وجل:

((أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا)).[٦]

وبقوله تعالى:

((وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)).[٧]

وبقوله عزّ وجل:

((لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)).[٨]

وبين هاتين النفسين نفس متوسطة في السعادة والشقاوة، ولها مراتب مختلفة في اتصافها بالفضائل والرذائل بحسب الكم والكيف والزمان فيختلف فيها فتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكورة، فتارةً يبتدئ فيها خاطر الهوى فيدعوها إلى الشر، وتارة يبتدئ فيها خاطر الإيمان فيبعثها على الخير، ومثلها معركة تطارد جندي الشيطاني والملائكة وتجاذبهما، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه، ولا تزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين، إلى أن تصل إلى ما خلقت لأجله لسابق القضاء والقدر.

ثم النفس الأولى في غاية الندرة، وهي نفوس الكمل من المؤمنين الموحدين، والثانية في نهاية الكثرة وهي نفوس الكفار بأسرهم، والثالثة نفوس أكثر المسلمين، ولها مراتب شتى ودرجات لا تحصى ولها عرض عريض، فيتصل أحد طرفين بالنفس الأولى، وآخرهما بالثانية.[٩]

نسأل الله تعالى ان يعانينا على أنفسنا ويهدينا سبيل الرشاد.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ و ٢٨.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.
(٧) سورة يس، الآية: ١٠.
(٨) سورة يس، الآية: ٧.
(٩) جامع السعادات للنراقي: ج١، ص١١٦ ـ ١١٨.

شروط الإمام الخاصة وصفاته

الحلقة الثالثة

قلنا في الحلقة السابقة أن من شروط الإمامة بعد النبي العصمة المطلقة الكاملة من الخطأ والإثم، فالأدلة على عصمة الأئمة يمكن أن تأتينا من الآيات القرآنية أو السنة الشريفة حيث نمر على بعضها مروراً عاجلاً ثم نستدل بالدليل العقلي على حكمة العصمة لدى الأئمة عليهم السلام: قال الله تعالى:

((إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)).(1)

هذه الآية توفر الحماية الإلهية لأهل البيت عليهم السلام والروايات الشريفة كثيرة نذكر منها قوله (صلى الله عليه وآله): (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) رواه مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده.

وقوله (صلى الله عليه وآله): (علي مع الحق والحق مع علي يدور معه كيفما دار) وروى صاحب (كنز العمال): (أن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: من أحب أن يحيا حياتي ويموت موتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علياً وذريته من بعده فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة).

وكثيرة الآيات والروايات الدالة على العصمة فأهل البيت هم عدل القرآن وإنهما لم يفترقا على مر الزمن والنبي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى كما وصفه القرآن المجيد يدفعنا للتمسك بالكتاب العزيز والعترة الطاهرة ويضمن عدم الضلال من بعده لو تمسكنا بهما وأن علياً يدور مع الحق كيفما دار وأنه (صلى الله عليه وآله) ينزه الإمام علياً (عليه السلام) عن الخروج من باب الهدى والدخول في باب الضلالة فنحن نؤمن بالقرآن العظيم ونستن بسنة الرسول(صلى الله عليه وآله) لذلك نؤمن بعصمة النبي وعصمة خلفائه أئمة أهل البيت يقول الإمام علي(عليه السلام): (والإمام المستحق للإمامة له علامات منها: أن يعلم أنه معصوم من الذنوب كلها صغيرها وكبيرها لا يزل في الفتيا ولا يخطىء في الجواب ولا يسهو ولا ينسى ولا يلهو بشيءٍ من أمر الدنيا... الخامس العصمة من جميع الذنوب وبذلك يتميز عن المأمومين الذين هم غير المعصومين لأنه لو لم يكن معصوماً لم يؤمن عليه أن يدخل فيما دخل الناس فيه من موبقات الذنوب المهلكات والشهوات واللذات..).

وعقلياً نتساءل كيف نضمن الاستقامة في المسيرة لو لم يكن إمامنا وقائدنا معصوماً عن الخطأ، أي إن لم يحصل الاطمئنان بالإمام في تبليغه وتنفيذه للأحكام الإسلامية، ولو جوزنا عليه الانحراف والمعاصي. لا سمح الله. كيف نطمئن لقيادته لنطيعه.

ولو جوزنا الخطأ والنسيان والمعصية على الإمام لنفينا غرضه ولجاز مخالفتهم في القرارات وهذا يخالف أمر الله والرسول بإطاعتهم وأنهم مع الحق دوماً فلا يمكن أن يوصفوا بالخطأ والنسيان إطلاقاً قال الإمام علي(عليه السلام): (كبار حدود ولاية الإمام المفروض الطاعة أن يعلم أنه معصوم من الخطأ والزلل والعمد ومن الذنوب كلها صغيرها وكبيرها لا يزل ولا يخطىء ولا يلهو بشيءٍ من الأمور الموبقة للدين ولا بشيءٍ من الملاهي وأنه أعلم الناس بحلال الله وحرامه وفرائضه وسننه وأحكامه مستغن عن جميع العالم وغيره محتاج إليه)(2).

الأفضلية على سائر الناس في صفات الكمال

فالإمام المعصوم هو أفضل الناس علماً وتقوىً وإيماناً وشجاعةً وكرماً وعفة وزهداً وعدلاً وسياسة وجهاداً وإرادةً وثورة وعبادةً.. والأدلة على أفضليتهم هي عينها الدالة على أفضلية النبي (صلى الله عليه وآله) يقول الشيخ المظفر:(أما علمه فهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات من طريق النبي أو الإمام من قبله وإذا استجد شيء لا بد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه فإن توجه إلى شيءٍ وشاء أن يعلمه على وجهه الحقيقي لا يخطىء فيه ولا يشتبه ولا يحتاج في كل ذلك إلى البراهين العقلية ولا إلى تلقينات المعلمين وإن كان علمه قابلاً للزيادة والاشتداد ولذا قال (صلى الله عليه وآله) في دعائه: (رب زدني علما).. فلذلك نقول إن قوة الإلهام عند الإمام التي تسمى بالقوة القدسية تبلغ الكمال في أعلى درجاته فيكون في صفاء نفسه القدسية على استعداد لتلقي المعلومات في كل وقت وفي كل حالة فمتى توجه إلى شيءٍ من الأشياء وأراد معرفته استطاع علمه بتلك القوة القدسية الإلهامية بلا توقف ولا ترتيب مقدمات ولا تلقين معلم.. ويبدو واضحاً هذا الأمر في تاريخ الأئمة (عليهم السلام) كالنبي محمد (صلى الله عليه وآله) فإنهم لم يتربوا على أحد ولم يتعلموا على يد معلم من عهد طفولتهم إلى سن الرشد حتى القراءة والكتابة ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب أو تتلمذ على يد أستاذ في شيء من الأشياء(3).

ليس هذا هو علم الغيب فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى وإنما علمهم هذا من علم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وشبيه لعلمه أيضاً.

قال ابن عباس: أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر وقال ابن عبد البر: ما كان أحد يقول سلوني غير علي، فالإمام (عليه السلام) هو الأفضل علماً وشجاعة وكرماً وسائر الصفات الحسنة.

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أعلمكم علي وأقضاكم علي وأعدلكم علي وأفقهكم علي).

وقال الإمام علي (عليه السلام): (لا يتحمل هذا الأمر إلا أهل الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمر)، وقال أيضاً: (إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه فإن شغب شاغب أستعتب فإن أبى قوتل) وقال(عليه السلام) في حديث طويل يحدد فيه علامات الإمام يقول فيه..:

(.. والثاني أن يكون أعلم الناس بحلال الله وحرامه وضروب أحكامه وأمره ونهيه جميع ما يحتاج إليه فيحتاج الناس إليه

ويستغني عنهم.

والثالث: يجب أن يكون أشجع الناس لأنه فئة المؤمنين التي يرجعون إليها إن انهزم من الزحف انهزم الناس لانهزامه..

والرابع: يجب أن يكون أسخى الناس وإن بخل أهل الأرض كلهم لأنه إن استولى الشح عليه شح بما في يديه من أموال الناس).

ويقول الإمام السجاد (عليه السلام) في(الصحيفة السجادية): (اللهم إنك أنزلت القرآن على نبيك مجملاً وألهمته علم عجائبه مكملاً وورثتنا علمه مفسراً وفضلتنا على من جهل علمه وقويتنا عليه لترفعنا فوق من لم يطق حمله).

ويحدد الإمام الرضا(عليه السلام) هذه العلامات بقوله: (للإمام علامات: يكون أعلم الناس وأحكم الناس وأتقى الناس وأحلم الناس وأشجع الناس وأسخى الناس وأعبد الناس..) والإمام الباقر(عليه السلام) يقول: (إن الإمامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم وحلم يملك به غضبه وحسن الخلافة على من ولى حتى يكون له كالوالد الرحيم).

وقال الإمام الرضا(عليه السلام): (إن العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاماً فلم يعي بعده بجواب ولا يحير فيه عن الصواب).

وكثيرة هذه الروايات التي تبين صفات الإمام المعصوم على أنها أفضل الصفات كمالاً لذلك يتم اختياره لهذا المنصب من قبله تعالى فلو لم تكن هذه الصفات المتميزة للإمام فبماذا يتميز على الناس وكيف يمكنه أن يديرهم ويقودهم وعلى الناس أن يطيعوه فإنه بهذه الصفات الكريمة يحتل الموقع القيادي الشرعي في قلوب الناس.

السلامة من العيوب الوراثية والجسدية والنفسية

فكما أن المعصوم يتصف بأفضل الصفات الكمالية كذلك يتصف بعدم النقص من الوراثة والجسد والنفس أي أنه منزه عن الأمراض النفسية والعيوب الجسدية كالعمى والبرص والجذام والبخل وسوء الخلق ويتصف بطهارة الولادة وحسن المنشأ يقول الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الإمام لا يستطيع أحد أن يطعن عليه في فم ولا بطن ولا فرج فيقال كذاب ويأكل أموال الناس وما أشبه هذا...).

ويقول الإمام الباقر (عليه السلام) في تبيين علامة الإمام: (طهارة الولادة وحسن المنشأ ولا يلهو ولا يلعب).

هذه الحالة التكاملية في شخصية المعصوم جسدياً ونفسياً هي التي تؤهله لقيادة الأمة بالشكل الصحيح البعيد عن النقص والانتقاص يقول الإمام علي(عليه السلام):

(وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين: البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة)[٤].

المعاجز والكرامات

وهي من شرائط الإمامة فكل إمام من أئمة أهل البيت تظهر له معاجز خارقة تدلل على أنه هو الإمام المعصوم لا غيره وهو خليفة الرسول لا غيره وذلك في المعارف الإسلامية والعلوم الطبيعية أو يأتي بما تخالف العادات والتقاليد وقد يظهر ذلك في العلوم كالمنطق واللغة والطبيعة والكيمياء وقد يظهر في استجابة الدعاء لرفع كربة مظلوم أو للانتقام من الظالمين. . وحياة أئمة أهل البيت(عليهم السلام) مليئة بهذه الكرامات.

بل إن هذه الكرامات الإلهية تجري على يد الأئمة الأطهار حتى اليوم حيث الشفاء في تربة الإمام الحسين والدعاء يستجاب تحت قبته وأعسر الطلبات الصحية والأزمات النفسية والاجتماعية نجد حلها عند الأئمة الأطهار بإذن الله سبحانه فهم شفعاؤنا إلى الرب الرحيم وأبواب المراد وما خاب من تمسك بهم ولجأ إليهم في طلب حاجة فإنها تقضى إن كانت المصلحة والحكمة في قضائها والأمثلة في ذلك كثيرة جداً ويتداولها الناس.

العلم الغزير

الإمام، كالنبي، هو الملجأ العلمي للناس، فلابد أن يكون عارفاً بجميع أصول الدين وفروعه، وبظهر القرآن وباطنه، وبسنة رسول الله وبكل ما له علاقة بالإسلام معرفة تامة، وذلك لأنه حافظ الشريعة وحاميها، كما هو قائد الناس ومرشدهم.

إن الذين يرتبكون إذا ما واجهوا مشكلة معقدة، أو أنهم يرجعون إلى الآخرين يطلبون عندهم الحلول، لأن ما عندهم من علم يقصر عن الإجابة على أسئلة المجتمع المسلم، ليس لهم أن يتحملوا مسؤولية إمامة الأمة وقيادتها.

فالخلاصة هي أن الإمام يجب أن يكون أعلم الناس وأوعاهم لدين الله، وأن يملأ الفراغ الذي يتركه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأسرع ما يمكن لكي يستمر الإسلام الصحيح الخالي من كل انحراف في مسيرته.

وأن يكون أشجع أفراد المجتمع، إذ أن القيادة بغير شجاعة غير ممكنة: الشجاعة عند مواجهة الحوادث الصعبة المرة، الشجاعة عند الوقوف بوجه الأقوياء الغلاظ الظالمين، الشجاعة في صد الأعداء الداخليين والخارجيين.

ومن المعلوم أن الذين يميلون إلى مباهج الدنيا وزخرفها سرعان ما ينخدعون ويسهل اغراؤهم بالانحراف عن طريق الحق والعدالة بوساطة الترغيب أحياناً والترهيب أحياناً أخرى.

وشخص هذا شأنه يكون في الواقع (أسيراً) للدنيا، بينما الإمام يجب أن يكون (أميراً) بالنسبة لمتاع الدنيا وبهرجها.

أنه يجب أن يكون متحرراً من أسر أهواء النفس ومنطلقاً من قيود الثورة والجاه، لكي لا يستطيع أحد إغراءه ويؤثر فيه ويحمله على الاستسلام والمساومة.

يقول القرآن في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ))[٥]

إن النبي الذي هو إمام وقائد معاً ليس هو وحده الذي يجب أن يملك ذلك الخلق الرفيع الذي يجذب إليه الناس كما يجذب المغناطيس الحديد.

لا شك أن كل خشونة وسوء خلق مما يثير النفور والتباعد في الناس يعتبر من العيوب الكبيرة في النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام لذلك فإن الأنبياء والأئمة عليهم السلام منزهون عن هذا العيب، وإلاّ كان كثير من فلسفة الوجود عبثاً لا طائل تحته.

هذه هي أهم الشروط التي ذكر كبار العلماء أنها يجب أن تتوفر في الإمام.[٦]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ج١، ص١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) عقائد الإمامية للشيخ المظفر: ص٦٨.

(٤) ميزان الحكمة: ج١، ص١٧٣ ـ ١٩٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٦) سلسلة أصول الدين للشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ص٢٩ـ ٣١.

السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي

الفاضل الجليل المعاصر شرف الحق والدين السيد عبد الحسين شرف الدين العلوي الفاطمي الموسوي العامل الشريف.

هو عبد الحسين بن يوسف بن جواد بن إسماعيل بن محمّد بن إبراهيم بن شريف الدين بن زين العابدين بن علي بن الحسين ابن محمد بن الحسين بن علي بن محمد أبي الحسن تاج الدين بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن حمزة بن سعد بن حمزة ابن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله بن محمد بن طاهر ابن الحسين بن موسى بن إبراهيم المرتضى ابن الإمام الهمام المعصوم أبي الحسن الأول موسى الكاظم عليه السلام.

ولادته

ولد في مدينة الكاظمية المقدسة عام ١٢٩٠هـ، في عائلة علمية متدينة، وكان والده من علماء جبل عامل في جنوب لبنان.

أما والدته فهي العلوية الجليلة بنت آية الله السيد هادي الصدر، وأخت المرجع الكبير السيد حسن الصدر رحمة الله عليهم جميعاً، وينتهي نسبه إلى الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام، صاحب المشهد الكاظمي الملقب بباب الحوائج عليه السلام بثمانية وعشرين واسطة، وهو اليوم من أجلة علماء قطر جبل عامل في جنوب لبنان.

قال عنه السيد حسن الصدر: (عالم فاضل محقق مدقق، ذو فضل واطلاع وغور في تحقيق الحقائق، كامل في أكثر الفنون الإسلامية، أحد المراجع في الدين اليوم، له مصنفات حسنة ومؤلفات نافعة، مروّج للدين نافع للمؤمنين).(١)

دراسته وأساتذته

درس مرحلة المقدمات عند والده في لبنان.

لازَمَ والدَه ودرس على يديه ما يحتاج إليه من العلوم الأوّليّة، فعُرِف بتقدّمه على أقرانه في سنّ مبكّرة، وخلال سنواتٍ معدودة أصبح السيّد يُشار إليه بالبَنان في الاجتهاد والدقّة وقوّة الحُجّة في المُناظَرة والمُذاكَرة، واشتهر في تقرير الدروس الفقهيّة والأُصوليّة؛ من حيث العمق وحضور الذهن وسرعة الاستنباط وحلّ معضلات المسائل بأقرب طريق.

ودرس مرحلة السطوح عند الشيخ باقر حيدر، والسيد صادق الاصفهاني والشيخ علي باقر (ابن صاحب الجواهر).

عندما بلغ عمره ١٧ سنة هاجر إلى العراق لاكمال دراسته في حوزة النجف الأشرف والحوزات العلمية المنتشرة في مدن العراق.

وكان السيّد شرف الدين قد نَهَل من نمير أعلام العراق، بعد إكماله مرحلة السطوح العالية أخذ يحضر دروس المراجع والعلماء الأعلام أمثال: الآخُوند محمّد كاظم الخُراسانيّ، وشيخ الشريعة الإصفهانيّ، والسيّد كاظم اليزديّ، والسيّد إسماعيل الصدر، والسيّد حسن الصدر، والشيخ حسن الكربلائي، والشيخ محمد طه نجف، وكان رحمه الله كثيرَ السؤال والمذاكرة والاستفسار عن مشاكل المسائل، محبّاً للمناظرة والإفادة، كارهاً للجدل العميق، وإنما كان يعرض المسألة ليُفيد أو يستفيد، من غير أن يتعالى على المُتناظر معه أو يجرح شعوره إذا احتدم النزاع.. وهذا هو الذي جعل له هَيبةً في النفوس وحُرمةً في القلوب كلّما حَمِيَ وطيسُ المذاكرات العلميّة.

وما بلغت سنُّه الثانية والثلاثين حتّى أصبح من المجتهدين المرموقين، وأصبح معروفاً في الأوساط العلميّة بصورةٍ قلّما حَظِي بمثلها عالمٌ قبلَه في مثل سنّه. ومع ذلك، كان يواصل تحصيله العلميّ في النجف الأشرف، متنقّلاً بين الحين والآخر بينه وبين الكاظمية وسامرّاء وكربلاء، يتّصل بأعلام هذه البلاد ومراجعها، حتّى أصبح اسمه يتردّد في كلّ مُنتدىً علميّ، أو مَجمع أدبيّ.. فقد كان السيّد شرف الدين. بالإضافة إلى علمه الغزير. شاعراً من الطراز الفاخر، تُقرَأ في شعره الرقّة والجزالة والمتانة، مع دقّة المعنى وفصاحة اللفظ وبداعة الأسلوب.

صفاته وأخلاقه

كانت صفاته رحمه اللّه قائمة على أساس القرآن الكريم والسيرة العمليّة للنبي محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، مستقاة من الصفات الحميدة للعلماء الماضين من السلف الصالح.

و من الصفات التي تميز بها هي الإخلاص في العمل للّه سبحانه وحده، لأنه كان يعلم أن ما كان للّه ينمو، وكان يبالغ في إكرام الضيوف وبالخصوص العلماء منهم، وكان يتفقد طبقات المجتمع كافة، باعتبار إن ذلك من أخلاق النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأهل بيته (سلام اللّه عليهم أجمعين)، وسيرتهم مع الناس.

وكان يسعى لرفع مشكلات الفقراء والمحتاجين منهم، وكان (رحمه اللّه) في أيام الحرب العالمية يقوم بجمع التبرعات والحقوق الشرعية من المتاع والطعام، من الأثرياء وأصحاب رؤوس الأموال، ويوزعها على المساكين لغرض سد احتياجاتهم المعاشية.

وكان عطوفا سمحا يعفو عمن أساء إليه، وكان يهتم بإحياء المناسبات التي تخصّ أهل العلم و الأدب، ويشجع الطلاب على الدراسة، وعلى السير في طريق تزكية النفس وتهذيبها بالفضائل، ويحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يعتبر نفسه خادما للمذهب الشيعي.

وكان يوصي الجميع ــ وبالخصوص الطلاب ــ بالتواضع، ويحثهم على مخاطبة الناس على قدر عقولهم وإدراكهم، وحسب مزاجهم وأذواقهم، بمرونة ولطف ولين.

يصف عبد الأمير سبيتي بيت السيد

عبد الحسين شرف الدين في مدينة صور فيقول: (السيد عبد الحسين شرف الدين، أحد أعلام عصره علمًا وعملا وتأليفًا وجهادا وبناء لمؤسسات، ومرجعا لحلِّ المشكلات، وحاكما عدلا في من يرجع إليه من خلافات... وقد كان بيته لا يخلو من مراجع أو مستفت أو شاك أو صاحب حاجة أو زائر أو متفقّد أو ضيف... في ليل أو نهار فالباب مشرع والديوان مفتوح).

أقوال العلماء فيه

قال فيه العلامة الاميني: (كان السيد شرف الدين الموسوي من النوادر في عالم التشيع، لقد كان مصلحا كبيرا وشخصية إسلامية رفيعة المستوى, وموضعا لاهتمام الأمة الإسلامية جمعاء, أن تضحياته (جزاه اللّه خيرا) في سبيل إعلاء كلمة الإسلام, وتوحيد صفوف المسلمين, والدعوة الى الوحدة؛ لا يمكن أن تنسى).

وقد قال فيه الشهيد الشيخ مرتضى المطهري: (يعتبر السيد شرف الدين من علماء الشيعة البارزين في القرن الأخير, ومن الذين لهم خدمات إصلاحية وفكرية, جلبت اهتمام الأمة الإسلامية عامة, و المذهب الشيعي على وجه الخصوص).

مواقفه السياسية

أما عن شجاعته, فله مواقف مشهودة ضد الاستعمار الفرنسي, و له موقف جريء من الدولة العثمانية حيث تمكن من الحصول على موافقة منها بإعفاء طلاب العلوم الدينية من الخدمة العسكرية.

تصدى السيد شرف الدين للاستكبار والاستعمار بأنواعه وأشكاله كافة, وكانت مواقفه الجهادية ضد الاستعمار الفرنسي معروفة لدى الجميع.

وقد حاول الاستعمار الفرنسي إيجاد كثير من المتاعب والمشكلات ووضع العراقيل في مسيره, حتى اضطر إلى أن يهاجر الى دمشق, وقد حاول جيش الاحتلال الفرنسي جاهدا منعه من السفر إلى دمشق, إلا أنّ جميع محاولاتهم باءت بالفشل, مما اضطرهم إلى التعبير عن غضبهم و انتقامهم بالحكم عليه بالإعدام غيابيا وحرق منزله في منطقة شحرور, والإغارة على منزله الآخر في مدينة صور, و مصادرته وإحراق مكتبته التي كانت تحتوي على كثير من المخطوطات العلمية القيّمة، فاضطر إلى الهرب خارج لبنان، فسكن دمشق فترة من الزمن، وبعدها ذهب إلى مصر، ومنها إلى فلسطين وأقام في قرية تسمى (علما) قرب الحدود مع جبل عامل حيث اجتمع بأهله ثانية هناك، وبعد استقرار الأوضاع أُسقط الحكم عنه فعاد إلى أسرته في مدينة صور.

ومن مواقفه الأخرى دعمه لحركات التحرير في البلدان العربية والإسلامية, مثل حركة تأميم قناة السويس في مصر, وحركة تأميم النفط في إيران.

خدماته

للسيد شرف الدين خدمات جليلة.

١ ـ بناء مسجد وحسينية في منطقة تجمع الشيعة في جنوب لبنان, لغرض إقامة الصلاة وإحياء المناسبات الإسلامية فيها.

٢ ـ تأسيس المدرسة الجعفرية, للمحافظة على أفكار الشباب وتحصينها ضد الأفكار الاستعمارية التي كان الاحتلال الفرنسي يبثها عن طريق المدارس الرسمية.

٣ ـ إنشاء مسجد الجعفرية.

٤ ـ بناء مدرسة الزهراء عليها السلام.

٥ ـ تأسيس نادي الإمام الصادق عليه السلام, لإقامة الاجتماعات والمؤتمرات الإسلامية والعلمية والتربوية والثقافية.

٦ ـ القيام ببناء الروضة الجعفرية للأطفال, بقسميها للبنين والبنات.

٧ ـ افتتاح جمعية نشر العلم.

٨ ـ تأسيس الجمعية الخيرية الجعفرية, لمساعدة الفقراء والمحتاجين.

٩ ـ تأسيس جمعية البر و الإحسان, لرعاية المساكين واليتامى.

سافر إلى مصر للاطلاع على دروس علماء جامعة الأزهر ومدرسيها، والاستفادة من آرائهم، ومن جملة أولئك المدرسين الشيخ محمد الكناني، والشيخ سليم البشري.

قرأ على العلامة الأستاذ الإمام المولى محمد كاظم الخراساني والعلامة الأستاذ جامع الفنون والعلوم الإمام شيخ الشريعة الاصبهاني وغيرهما.

وله مؤلفات مهذبة مفيدة، منها:

(١) كتاب (الفصول المهمة في تأليف الأمة) يعني الشيعة وأهل السنة وهو كتاب لطيف في بابه.

(٢) وكتاب (المجالس الفاخرة في ماتم العترة الطاهرة) وهو منقسم على أربعة أجزاء، على ما ذكره المصنف في المقدمة.

(٣) ورسالة سمّاها (مقدمة المجالس الفاخرة) تصدى فيها لاثبات رجحان اقامة العزاء والبكاء والابكاء في المصائب الواردة على الصلحاء والأولياء ولاسيما العترة الطاهرة، بما ورد بطريق أهل السنة والجماعة من الآثار في صحاحهم ومسانيدهم وتواريخهم وأقوال العلماء ونحوها في هذا الباب، ردًّا على مَن يقول بأنّه بدعة في الدين.

(٤) وله رسالة (الكلمة الغرّاء في فضيلة الزهراء عليها السلام) يعني فاطمة بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم.

(٥) وله كتاب (المراجعات) في مطالب متفرقة وفوائد متنوعة.

وطبعت كلّها في سوريا وبعضها طبع مكرراً.

تشرف المترجم لزيارة مشهد الرضا عليه السلام في سنة ١٣٥٦ الهلالي الهجري وأكرم مقدمه جلّ علماء طهران وشاهدته فيها واجتمعنا معه وباحثاه مراراً، وجدته بليغ التتبع والإحاطة في الحديث والرجال والتراجم والسير ونحوها أدام اللّه تعالى عزّه وأعزّ نصره وله محاضرات ومفاوضات مع علماء العامة كتابةً وشفاهاً.

وفاته رحمه اللّه

بعد أن اجتاز من العمر سبعةً وثمانين عاماً انتقل الى رحمة اللّه تعالى في لبنان بتاريخ ٨ / جمادى الثانية / ١٣٧٧ هـ ، وتم تشييع جثمانه الشريف بشكل رسمي في العاصمة بيروت.

ثم نقل جسده الطاهر الى بغداد بالطائرة, و شيع في مدينة الكاظمية و كربلاء المقدستين والنجف الاشرف, حيث شارك في ذلك التشييع المهيب الذي لا مثيل له طبقات المجتمع كافة, وبالخصوص العلماء الاعلام, وتم دفنه في الصحن الشريف للامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام.[٢]

---

(١) مرآة الشرق للشيخ محمد أمين الخوئي: ج١، ص٦٧٥.

(٢) موقع الحوزة العلمية في قم المقدسة.

مسخ الرجل الذي شتم أمير المؤمنين علياً عليه السلام

عن محمد بن عمر الواقدي، قال: كان هارون الرشيد يقعد للعلماء في يوم عرفة، فقعد ذات يوم وحضره الشافعي، وكان هاشميّاً يقعد إلى جنبه، وحضر محمّد بن الحسن وأبو يوسف فقعدا بين يديه، وغصّ المجلس بأهله، فيهم سبعون رجلاً من أهل العلم، كلّ منهم يصلح أن يكون إمام صقع من الأصقاع.

قال الواقديّ: فدخلت في آخر الناس، فقال الرشيد: لم تأخّرت؟

فقلت: ما كان لإضاعة حقّ، ولكنّي شغلت بشغل عاقني عمّا أحببت. قال: فقرّبني حتى أجلسني بين يديه، وقد خاض الناس في كلّ فنّ من العلم، فقال الرشيد للشافعي: يا بن عمّي، كم تروي في فضائل عليّ بن أبي طالب؟ فقال: أربعمائة حديث وأكثر.

فقال له: قل ولا تخف. قال: يبلغ خمسمائة أو يزيد.

ثمّ قال لمحمد بن الحسن: كم تروي يا كوفيّ من فضائله؟

قال: (نحو) ألف حديثٍ أو أكثر.

فأقبل على أبي يوسف، فقال: كم تروي أنت يا كوفيّ من فضائله؟ أخبرني ولا تخش.

قال: يا أمير المؤمنين، لولا الخوف لكانت روايتنا في فضائله أكثر من أن تحصى.

قال: ممّ تخاف؟ قال: منك ومن عمّالك وأصحابك. قال: أنت آمن، فتكلّم وأخبرني كم فضيلةٍ تروي فيه؟ قال: خمسة عشر ألف خبراً مسنداً، وخمسة عشر ألف حديثاً مرسلاً. قال الواقدي: فأقبل عليّ. فقال: ما تعرف في ذلك (أنت)؟ فقلت مثل مقالة أبي يوسف. قال الرشيد: لكنّي أعرف له فضيلة رأيتها بعيني، وسمعتها بأذني، أجلّ من كلّ فضيلةٍ تروونها أنتم، وإنّي لتائب إلى الله تعالى ممّا كان منّي من أمر الطالبيّة ونسلهم.

فقلنا بأجمعنا إن رأيت أن تخبرنا بما عندك.

قال: نعم، ولّيت عاملي يوسف بن الحجاج بدمشق، وأمرته بالعدل في الرعية، والإنصاف في القضية، فاستعمل ما أمرته، فرفع إليه أنّ الخطيب الذي يخطب بدمشق يشتم (أمير المؤمنين) علي بن أبي طالب عليه السلام في كل يوم وينتقصه، قال: فأحضره وسأله عن ذلك، فأقرّ له بذلك، فقال له: وما حملك على ما أنت عليه؟

قال: لأنه قتل آبائي، وسبى الذراري، فلذلك الحقد له في قلبي، ولست أفارق ما أنا عليه. فقيّده وغلغله وحبسه وكتب إليه بخبره، فأمرته أن يحمله إليّ على حالته من القيود، فلمّا مثل بين يدي زبرته وصحت به، وقلت: أنت الشاتم لعلي بن أبي طالب ؟!

فقال نعم. قلت: ويلك قتل من قتل، وسبى من سُبي بأمر الله تعالى، وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما أفارق ما أنا عليه، ولا تطيب نفسي إلاّ به.

فدعوت بالسياط والعقابين، فأقمته بحضرتي ها هنا، وظهره إليّ فأمرت الجلاّد فجلده مائة سوط، فأكثر الصياح والغياث، فبال في مكانه، فأمرت به فنحّي عن العقابين، وأدخل ذلك البيت ـ وأومى بيده إلى بيتٍ في الأيوان ــ وأمرت أن يغلق الباب عليه (وإقفاله)، ففعل ذلك، ومضى النهار، وأقبل الليل، ولم أبرح من موضعي هذا حتى صلّيت العتمة.

ثمّ بقيت ساهراً أفكّر في قتله وفي عذابه، وبأيّ شيءٍ أعذّبه، مرّة أقول: أعذّبه على عداوته؛ ومرّة أقول: أقطع أمعاءه، ومرّة أفكّر في تغريقه، أو قتله بالسوط، واستمرّ الفكر في أمره حتى غلبتني عيني (فنمت) في آخر الليل، فإذا أنا بباب السماء وقد انفتح وإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد هبط وعليه خمس حلل.

ثمّ هبط علي عليه السلام وعليه ثلاث حلل. ثم هبط الحسن عليه السلام وعليه ثلاث حلل. ثم هبط الحسين عليه السلام وعليه حلّتان. ثم نزل جبرئيل عليه السلام وعليه حلّة واحدة، فإذا هو (من) أحسن الخلق، في نهاية الوصف، ومعه كأس فيه ماء كأصفى ما يكون من الماء وأحسنه.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أعطني الكأس، فأعطاه، فنادى بأعلى صوته: يا شيعة محمد وآله، فأجابوه من حاشيتي وغلماني وأهل الدار أربعون نفساً أعرفهم كلّهم، وكان في داري أكثر من خمسة آلاف إنسان، فسقاهم من الماء وصرفهم.

ثمّ قال: أين الدمشقي فكأنّ الباب قد انفتح، فأخرج إليه، فلمّا رآه عليّ عليه السلام أخذه (بتلابيبه) وقال عليه السلام: يا رسول الله، هذا يظلمني ويشتمني من غير سببٍ أوجب ذلك، فقال: خله يا أبا الحسن.

ثم قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على زنده بيده وقال: أنت الشاتم علي بن أبي طالب؟! فقال: نعم. قال: أللهم امسخه، وامحقه، وانتقم منه.

قال: فتحوّل ـ وأنا أراه ـ كلباً، وردّ إلى البيت كما كان، وصعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجبرئيل عليه السلام و(علي عليه السلام) ومن كان معهم.

فانتبهت فزعاً (مرعوباً) مذعوراً، فدعوت الغلام وأمرت بإخراجه إليّ، فأخرج وهو كلب، فقلت له: كيف رأيت عقوبة ربّك؟ فأومأ برأسه كالمعتذر، وأمرت بردّه، وها هو ذا في البيت.

ثمّ نادى وأمر بإخراجه، فأخرج وقد أخذ الغلام بأذنه، فإذا أذناه كآذان الإنسان، و(هو) في صورة الكلاب، فوقف بين أيدينا يلوك بلسانه، ويحرّك بشفتيه كالمعتذر.

فقال الشافعي للرشيد: هذا مسخ، ولست آمن من أن يحلّ العذاب به.

(فأمر بإخراجه عنّا)، فأمر به فردّ إلى البيت، فما كان بأسرع من أن سمعنا وجبة وصيحة، فإذا صاعقة قد سقطت على سطح البيت فأحرقته وأحرقت البيت، فصار رماداً، وعجّل (الله) بروحه إلى نار جهنم.

قال الواقدي: فقلت للرشيد: هذه معجزة (وعظة) وعظت بها فاتّق الله في ذريّة هذا الرجل، أي: ذريّة علي بن أبي طالب عليه السلام.(١)

---

(١) مدينة المعاجز: ج٢، ص٢٨٨ ـ ٢٩٢.

شرح الصحيفة السجادية

الحلقة التاسعة

الدعاء الأول

(... **لا يَنْقُصُ مَنْ زادَهُ ناقِصٌ، ولا يَزِيدُ مَنْ نَقَصَ مِنْهُمْ زايِدٌ،**.....).

قوله عليه السلام:

(لا ينقص من زاده ناقص)، على صيغة المعلوم من نقصه ينقصه فهو منقوص وهذا ناقص إيّاه، أي: من زاد الله سبحانه منهم لا ينقصه ناقص أصلاً، ومن نقصه عزّ وجلّ لا يزيده زائد أبداً.

أو من نقص ينقص فهو ناقص، أي: من زاده الله لا ينقص، ومن نقصه لا يزداد أبداً.

وفي رواية: ينقص على صيغة المجهول، والمعنى كما ذكر.[١]

وقيل: يريد به أنّ كلّ حيّ يستوفي بالكامل قبل موته، فلا يُحرم شيئاً مما هو له، ولا يُرزق ما ليس له، وإذن علامَ التّحاسد، والتّباغض؟[٢]

وقيل: (لا ينقص من زاده) الله سبحانه في الرزق (ناقص) أي لا يتمكن أحد أو شيء أن ينقص من رزق من أراد الله زيادة رزقه، ونقص: متعد، ولذا يؤتى له بالمفعول، وهو منقوص (ولا يزيد من نقص) الله في رزقه (منهم زائد) فلا يتمكن أحد أن يزيد في رزق من قدّر له نقص الرزق.[٣]

كما قال الشاعر:

ليس فيه نقيصةٌ وازديادٌ
قطُّ عَما أسدى به في العطاء[٤]

وقيل: (لا ينقص) من باب نصر ومن الإفعال (من زاده ناقص). فاعل (ينقص) كما أنّ (زائد) في قوله عليه السلام:

«ولا يزيد من نقص منهم زائد» فاعل (لا يزيد)، أي: لا يقدر ناقص على تنقيص من زاد الله رزقه، ولا يزيد زائد رزق من نقص الله رزقه من عباده[٥]

وقيل: نقص الشيء نقصاً من باب قتل: ذهب منه شيء بعد تمامه، ونقصته أنا: يتعدّي ولا يتعدّى، هذه هي اللغة الفصيحة وبها جاء التنزيل في قوله تعالى: ((نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)).

وقوله تعالى: ((غَيْرَ مَنقُوصٍ)).

وفي لغة ضعيفة يتعدّى بالهمزة والتضعيف، قالوا: ولم يأت في كلام فصيح ويتعدّى بنفسه أيضاً إلى مفعولين فيقال: نقصت زيداً حقّه.

وكذا (زاد): يستعمل لازماً ومتعدّياً إلى واحد وإلى إثنين فيقال: زاد الشيء وزدته أنا، وزدت زيداً درهماً.

إذا عرفت ذلك فقوله ينقص مضارع نقص المتعدّي إلى واحد، ومن زاده مفعول مقدّم، وناقص فاعله وهو اسم فاعل منه.

وكذا قوله يزيد، مضارع زاد المتعدّي إلى واحد، ومن نقص منهم: مفعول. ومفعول نقص محذوف أي نقصه منهم، وحذف المفعول يكثر إذا كان ضميراً عائداً إلى الموصول كقوله تعالى: ((أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا))، أي: بعثه.

وقوله: (زائد) فاعل يزيد والكلام على حذف مضاف إذ ليس المراد تعلّق النقص والزيادة بالذات، والمعنى: إنّ من زاده الله تعالى قوته أو رزقه منهم لا ينقصه ناقص، ومن نقصه سبحانه لا يزيده زائد، وقدّم المفعول في الفقرتين لمزيد الاعتناء ببيان فعله تعالى من الزيادة والنقصان.[٦]

وقيل: (نقص) و(زاد) وردا في اللغة لازمين ومتعدين إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين، نحو: نقصت وزدت حقّه، ونقصت وزدت زيداً حقّه، ونقص وزاد الشيء، فقوله: (ينقص) مضارع نقص المتعدّي إلى واحدٍ.

و(من نقص منهم) مفعولٌ، ومفعول نقص محذوفٌ، أي: نقصه منهم، وحذف المفعول شائع إذا كان ضميراً عائداً إلى الموصول، وقوله: (زائد)، فاعل يزيد، والكلام على حذف مضاف، إذ ليس المراد تعلّق النقص والزيادة بالذات، وهاتان الفقرتان تأكيدٌ للسابق.

والمعنى: إنّ من زاده الله تعالى قوته أو رزقه منهم لا ينقصه ناقصٌ؛ ومن نقصه سبحانه لا يزيده زائد، أي أمر الرزق مفوضٌ إليه، فكلّ مقصورٍ ممّا قدّر له لا يمكن التخلّف عنه كما مرّ الدليل عليه عقلاً ونقلاً.[٧]

وقيل: ضبط (نقص) بالبناء للمجهول والمعنى كما ذكر، غير أنّ فيه نكتة لطيفة وهي عدم إسناد النقص إليه سبحانه مع التصريح بإسناد عديله أعني الزيادة إليه تعالى تأدّباً معه جلّ شأنه، وتشييداً لمعالم جوده وكرمه حتّى كان الصادر عنه تعالى هو الزيادة لا غير، وأنّ النقص صادر عن غيره جرياً على منهاج الآداب التنزيليّة في نسبة النعم والخيرات إليه عزّ وجلّ دون أضدادها كما في قوله تعالى: ((وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا))، وقوله تعالى: ((ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ))، وفائدة هاتين الفقرتين التأكيد لكون القوت من الرزق معلوماً مقسوماً من لدنه سبحانه وتعالى لا يستطيع غيره أن يتصرّف فيه بزيادة أو نقصان.[٨]

(١) شرح الصحيفة السجادية للسيد الداماد: ص٨٠.
(٢) في ظلال الصحيفة السجادية للشيخ محمد جواد مغنية: ص٥٠ ـ ٥١.
(٣) شرح الصحيفة السجادية للسيد محمد الشيرازي: ص١٦ ـ ١٧.
(٤) الصحيفة السجادية بنظم الشاعر عبد المنعم الفرطوسي: ص٢٠.
(٥) رياض العارفين في شرح صحيفة سيد الساجدين لمحمد بن محمد دارابي: ص٢٥.
(٦) رياض السالكين في شرح الصحيفة السجادية للسيد علي خان الحسيني الشيرازي: ص٢٨١.
(٧) لوامع الأنوار العرشية في شرح الصحيفة السجادية للسيد محمد باقر الشيرازي: ص٣٦٤.
(٨) رياض السالكين في شرح الصحيفة السجادية للشيخ علي الشيرازي: ص٢٨٢.

الإسلام والحفاظ الاجتماعي وأثره على الفرد والأسرة

يحرص الإسلام كثيراً لحفظ وديمومة النظام الاجتماعي.. حيث نرى التركيز البالغ من أجل تقوية وصلابة المجتمع وجعله كياناً رصيناً مبنيّاً على قواعد القيم الرسالية.. وحينما نتصفّح كتب المصادر والأحاديث المرويّة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام نجد فيضاً زاخراً يتناول الحثّ على مثالية المجتمع الإسلامي.. ويمكننا أن نستعرض ذلك على شكل نقاط:

أولاً: الحفاظ على أسسه الداخلية وذلك في علاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة المجتمع فيما بعضه مع وجود الروابط الإيجابية التي تدعم مسيرة العلاقة البنّاءة كالوحدة، والتعاون، وقضاء الحاجة، والصداقة، العيادة، الأخلاق، والإيثار.. .

وضمن هذا الإطار نجد التنبيه والتنويه عن عدم الوقوع في مغبّة الآفات التي تخلّ بكيان المجتمع وقواعده كداء الغيبة.. النميمة.. البهتان.. سوء الظنّ.. سوء الخلق.. المقاطعة والتدابر.. والتكبّر والغرور.. .

ثانياً: على صعيد علاقة المجتمع بالنظام السياسي حيث لا يتلاءم سير المجتمع بنمط طبيعي وبصورة سليمة مع وجود حاكم متسلّط.. لأن الحاكم المتسلّط يشكّل حجر عثرة في السنن الطبيعية لسير المجتمع والتي من أبرز دعائمها سنّة الاستقلال وعدم الاستعباد والحيلولة على حريّة الفرد والمجتمع.. وحينما يكون المجتمع نقيضاً لهذه السنّة فإنّه مطالب بإيجادها وحضورها، وإن وقف الحاكم السياسي وتفرّد برأيه.. وسيطر على المقدرات.. وعمّ الجور والقمع.. وتلاشت قيم الإنصاف والعدل.. حينئذٍ لابدّ للمجتمع أن يقف يداً واحدة شاهراً سلاح الجهاد في سبيل الله لاستبداله بنظام عادل يحكم بما أنزل الله.

ثالثاً: الحفاظ على أسس الأمور الشخصية.. ويتمّ على صعيد الالتزام الذاتي الذي ينبغي لكل إنسان أن يعيش ضمن شخصية رسالية ملتزمة.. لا يتعدّى حدود القيم والمبادئ أو يخرق الحواجز المحظورة عليه.. وحينما يصل الفرد إلى مرحلة سامية من الإلتزام الذاتي ذلك ما ينعكس إيجاباً في ساحة المجتمع.. باعتبار أن مصدر القوة في كيان المجتمع ينبثق من قوة الفرد حيث يسعى لتكوين وبناء اللبنات الصالحة لسور المجتمع..

وقبل أن يركّز الإسلام على حمل المسؤولية الاجتماعية المناطة بالآخرين يحثّ أوّلاً بتنمية وإيجاد روح المسؤولية الذاتية لدى الفرد لأنّه نواة المجتمع التي تنمو وتترعرع ضمن محيط مبدئي رسالي، وحينما نفتقد مسؤولية الذات حينئذٍ نعجز عن مسؤولية الغير (ومن نصب نفسه للناس معلّماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم الآخرين) وفاقد الشيء لا يعطيه..

من هنا يشيد الإسلام بالحفاظ على بناء الذات كالالتزام بالفرائض والتحلّي بالخلق الرفيع.. والوعي والمعرفة القرآنية.. .

ولا يقتصر البناء على الرجل دون المرأة.. فالمرأة مكلّفة كما الرجل ومحاسبة ما يحاسب.. وأن الصورة التامّة للمجتمع لا تقتصر على قطاع دون آخر ولا نتمكّن أن نشيد كيان المجتمع ما لم يشترك الطرفان في عملية البناء، وكلّ منهما يتمّم للآخر..

فكما أن الزوج يكد ويكدح ويتعب للحصول على لقمة العيش.. في المقابل أن المرأة تمارس دوراً يتمّم دور الرجل كصيانة البنية الداخلية كتربية الأطفال ومداراتهم، ومن هنا ترتسم لنا الخطوط العريضة والجلية لضرورة الاهتمام والعناية لبناء الصعيد الذاتي.. الذي يؤهّل دور الفرد في وضع اللبنات الاجتماعية البنّاءة التي تمثّل حصناً منيعاً تمنع معاول الآفات من هدمها.. ولهذا سوف نبحث في الصفحات التالية أهمّ الأمور التي تعزّز مكانة المجتمع المتمثّل في حجاب المرأة المسلمة.. .

فالحجاب يمثّل صون المرأة وكرامتها، ويهدف لتجسيد المرأة الملتزمة المسلمة.

١ ـ المحافظة على كرامة وعفّة المرأة

لقد طولب الإنسان منذ أن خلق أن يعيش مكرماً عزيزاً شريفاً.. والحجاب هو شرف وعفّة المرأة، وقد أشرنا آنفاً أن المرأة لها المكانة الإنسانية المشرفة في الإسلام.

هذه المكانة هي مسؤولية تدعوها إلى الاحتفاظ بها وعدم التفريط بحقّها وقد أبت كرامة الدين الحنيف أن تسمح للمرأة بأن تتلاعب أو تفرط بكرامتها، والتخلّي عن الحجاب بمثابة التنازل عن العزّة والشرف لأنّ حجابها يمثّل صونها، ولهذا فرض عزّ وجل على المرأة أن تصون جسدها ونفسها وأن لا تتعدّى الحدود التي رسمت لها وإن خرجت عن ذلك فكأنّما خرجت عن إطار الإسلام وقد أكّد لنا القرآن ضرورة الحجاب في قوله تعالى:

((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا))(١).

وفي قوله تعالى:

((وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ))(٢).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّة لابنه محمد بن الحنفية:

«فأنشده الحجاب خيراً لك ولهنّ من الارتياب وليس خروجهنّ بأشدّ من إدخالك من لا يوثق به عليهنّ وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل».

أمّا المشكلة التي نعانيها إن كثيراً من النساء اللاتي انخدعن بأساليب الغرب وإعلامه.. حيث أصبح لديهنّ القناعة التامة على أنّ المرأة المتحضّرة المتقدّمة هي التي تحدّث بجمالها وتظهر محاسنها ومفاتنها ولا داعي للتستّر والتخفّي، وتصورن الحجاب شبحاً جاثماً على أجسادهنّ يمنعهنّ من الحركة والعمل.

والحقيقة أنّهنّ لم ينظرن أو يدققن لأيّ درجة وصلت الفتاة الغربية أو الشرقية من التقدّم والتحضّر في الانحطاط والرجوع

إلى الجاهلية وبيع الشرف وشياع الفساد، وهذا نقيض للفتاة المسلمة التي تدعوها قيمها في حفظ العفّة والعزّة وليس لمعاينة الناس إليها والتلذّذ بجمالها في كل مكان، والقيم المبدئية لا تدعو المرأة أن تكشف جمالها أمام الآخرين وإنما تحدث بإيمانها والتزامها وأن تكون داعية للمعروف ناهية عن المنكر.

ودعنا نسأل أنفسنا ماذا نفضّل الفتاة التي تصون شرفها وجسدها وتخفي نعمة جمالها عن عيون الفاسدين وتكون محترمة عزيزة أو أن تكون سافرة متبرّجة فريسة وغرضاً لشهوات الآخرين؟ فالإجابة لا تحتاج إلى إفصاح!!

٢ـ الصيانة الاجتماعية

لابدّ أن تعلم الفتاة أنها جوهرة... والجوهرة بحاجة إلى الصون كي لا تطالها يد السارقين ولكي يتقدّم المشتري وينالها بطريقة مألوفة، وهكذا الحال للفتاة أنّها بحاجة أن تستر جسدها عن الشياطين إلى أن تتسنّى الرجل الشريف الذي يأخذ بيدها عن طريق أشرف وسيلة وهي الزواج.

ولا يخفى أن المجتمع الذي تحافظ نساؤه على الحجاب قلّما تحدث فيها الفتن والجرائم التي تنتج عن التخلّي من ارتدائه.. بيد أنّ العيون الزائغة التي تتلصّص يميناً وشمالاً كي يقع بصرها على فتاة متبرّجة، فتخيب آمالها حينها ترى جوّاً محكماً لا مجال للنظر إليه.

والوقاية من داء الفتن المحرّمة تكمن في حجاب المرأة أينما ذهبت بل تساهم في قبر وضمر الآفات الفتّاكة... .

إضافة إلى أن الفتاة المتبرّجة أمام الناس تكون سبباً لاقتراف الذنوب والتعرّض إلى سخط الله وغضبه لأنّها تمثّلت بلباس الشيطان والشيطان دوره إغواء الناس عن طريق الهدى وإغرائهم بالضلالة والهوى.. فتكون المرأة وسيلة لاقتراف السيّئات والوقوع في شرك حبائل إبليس.. ويكون العقاب والعذاب يوم القيامة للناظر والمنظور (في حالة التبرّج) فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«والمرأة إذا خرجت من باب دارها متزيّنة متعطّرة والزوج بذلك راضٍ يبني لزوجها بكل قدم بيت في النار».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«من ملأ عينيه من امرأة حراماً حشاهما الله يوم القيامة بمسامير من نار».[٣]

وقال صلى لله عليه وآله وسلم:

«النظر سهم مسموم من سهام إبليس.. فمن تركها خوفا من الله أعطاه الله إيماناً ويجد حلاوته في قلبه».[٤]

وعن الصادق عليه السلام قال:

«ألا إنّما العينان تزنيان وزناهما النظر».

وعنه عليه السلام قال:

«من تأمّل خلف امرأة فلا صلاة له».

وقال عيسى بن مريم عليهما السلام للحواريين:

«إيّاكم والنظر إلى المحذورات فإنّها بذر الشهوات ونبات الفسق».[٥]

وهكذا تشيع الحالة في الأجواء الاجتماعية، وهذا ما يغير المجتمع من حالة الأمان والحفاظ إلى جوّ الإجرام ودبّ الرعب في قلوب الآخرين.. حتّى تصل المرحلة أن تخشى الفتاة أن تتعدّى بيتها خطوة، وهذه إحدى السبل القسرية التي يسبب لها ترك الحجاب، وطريقة ثانية تأخذ طابع اللين والرضى كخلق الأجواء العامة الغزل اللامشروع.. واللقاءات المحرّمة.. والمكالمات الهاتفية الغرامية.. ومواعيد السيّارات.. والتنزّه في الحدائق والأسواق والخلوّ في الطرق الخالية و.. و.. كثيرة هي الأمور التي تحرّض على الميوعة والانحراف وتطفئ نور الضمير الإنساني وتنزع رداء العفّة والشرف على صعيد الطرفين إذ يصل الحال إلى أعتى درجة في الفساد.

القناعة تثبت قواعد الإيمان

إنّ من أسمى الأمور التي يحبّذها ديننا الحنيف أن تطبّق الفرائض وتعرف ما هي غاياتها.. فمن يقرأ القرآن ويعي معانيه ومن يصلّي ويدرك فلسفة ركوعه وسجوده وتشهّده وتسليمه.. ومن يصوم ويعرف غاية جوعه وصبره، فكل ذلك مما يضاعف الثواب والأجر عند الله عزّ وجل.. لأنّه أدرك معاني ما عمل وعرف مغازي ما فعل.. وهناك الأحاديث العديدة التي تحثّ على فعل الأمور بتدبّر وتفكّر وعلم ومعرفة وأن أداءها للرجل المتعلّم أكثر خيراً وثواباً من الرجل الجاهل حتى ولو كان مؤمناً.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«فقيه واحد أشدّ على إبليس من ألف عابد».

وقال عليه السلام:

«المؤمن العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر».

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«عالم أفضل من ألف عابد ومن ألف زاهد».

وهنا نستشفّ حقيقة من الأحاديث الآنفة إن العالم هو من يعلم حقيقة الدين ويعي غاياته وفلسفته.. ولذلك يفوق ثوابه وفضله عن العابد الزاهد المؤمن الذي يفتقر العلم.

وتنطبق الأمثلة للمرأة التي ترتدي الحجاب الذي تتحتّم عليها معرفة الغاية من ارتدائه.. وإن أدركت أفعال أمورها ذلك ما يعزز إيمانها وتصديقها بالقيم.. ومن تضع الحجاب من رأسها إلى رجليها لابدّ أن تعي لماذا فرض عليها وألزمها بالتقيّد به؟

وما أطيب الإيمان الذي يتوّج بالقناعة القلبية بل ليس هنالك إيمان يضاهيه.. وما أكثر قيمة الحجاب الذي ترتديه المسلمة من اندفاع إيماني وفرض واجب مقدّس فرض عليها.. لأنّه يضمن معاني عظيمة وجمّة تعود بالنفع والفائدة للمجتمع، وأن عدم التقيد به يجرّ العواقب الوخيمة على صعيد الذات والمجتمع.. وفرق شاسع بين إنسان يؤدّي ممارساته العبادية لأن والدايه مارسا وعملا فهو يقلّدهما دون زيادة.. وبين آخر يمارس الفرائض ويؤدّي الواجبات لأنّ تفكيره يقوده إلى معرفة قدر الله ولذلك لابدّ أن يطاع ويعبد.. وما دامت القناعة حاضرة في القلب فإنّها تثبت قواعد الإيمان.. ومن الصعب أن يتخلّى عن إيمانه حتى ولو خضع تحت ظروف قاهرة.[٦]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) ثواب الأعمال وعقابها للشيخ الصدوق: ص٢٨٧.
(٤) بحار الأنوار للمجلسي: ج١٠١، ص٣٨، ح٣٤.
(٥) ميزان الحكمة للريشهري: ج٤، ص٣٢٨٩.
(٦) الحجاب إيمان وقناعة: ص٢٥ ـ ٤١.



أثر دعاء الأبوين في توفيق الأبناء

آية الله السيد شهاب الدين النجفي المرعشي رحمه الله اسم عرفته جماهير المسلمين ضمن أسماء المراجع الكرام، وسمع الناس عنه الكثير من الفضائل، كتب تلميذه فضيلة السيد عادل العلوي قبساً عن حياته، وإليك نبذة منه:

ولد السيد في النجف الأشرف صباح يوم الخميس في العشرين من صفر (يوم أربعين الحسين عليه السلام) عام ١٣١٥هـ، من أبوين كريمين أصيلين في الرفعة والشرف، عريقين في الفضل والأدب، فترعرع في أحضان الفضيلة والتقوى باراً بوالديه، نشأ في محيط مفعم بالعلم والعمل الصالح وبالمثل العليا والأخلاق الفاضلة.

حقّاً ما قيل: إن المدرسة الأولى للطفل هي البيت، والمدرّس الأول هو الأم، وأن الواضع الأول لأساس أخلاقه وسلوكه هو الأب، فيترعرع الطفل على ما يجده ويلمسه في بيئته ومحيطه الأول، وتبقى آثار ما أخذه متبلورة في وجوده لا تزول، وفي الأثر: العلم في الصغر كالنقش على الحجر.

يقول السيد: أنه كان والده يصطحبه إلى درس المحقق الآخوند رحمه الله، وهو لم يبلغ الحلم.

وعندما كانت والدته تطلب منه أن يوقظ والده، يصعب عليه أن يناديه، فكان يمسح بوجهه وخدّه باطن قدم والده، فيستيقظ بعد دغدغة لطيفة وحينما يرى هذا الموقف المتواضع من ولده البار تدمع عيناه رافعاً يديه إلى السماء، ويدعو لولده بالتوفيق.

وكان السيد المرعشي رحمه الله يقول: إنما نلت هذا المقام وزاد الله في توفيقي ببركات دعاء والديّ عليهما الرحمة.[1]

الأحاسيس المرهفة

يقول فضيلة السيد عادل العلوي عن أستاذه آية الله العظمى السيد النجفي المرعشي رحمه الله تعالى:

كنت جالساً في غرفته بجواره، فدخل عليه رجل طاعن في السنّ من عوام الناس فقال بعد السلام والترحيب:

سيدي أعرّفك بنفسي أنا غلام الدلاّك وأودّ أن أذكر لك قصة من حياتك.

كنتُ دلاّكاً في حمام عام، وكنتَ أيام شبابك تأتي مع أولادك الصغار إلى ذلك الحمام، فدخلتم يوماً ورأيتم أطفالاً، فسألتني عنهم، فأخبرتكم أنهم أيتام، فقلتَ لأولادك لا تنادوني بكلمة (بابا) رعاية لمشاعر هؤلاء الأطفال اليتامى ثم أعطيتني نقوداً لأشتري لهم لوازم قرطاسية لمدرستهم فاشتريت ذلك.

يقول السيد العلوي: حينما سمعت هذه القصة اهتزّت مشاعري وقلت في نفسي: الله أكبر ما هذه الأحاسيس المرهفة.[2]

---

(١) كتاب قصص وخواطر للشيخ البحراني: ص٢١٦، برقم ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٢١٧ ـ ٢١٨، برقم ١٦٤.



إنجازات جابر بن حيان في الكيمياء
الحلقة الثالثة

كانت أهم الإسهامات العلمية لجابر في الكيمياء إدخال البحث التجريبي إلى الكيمياء، وهو مخترع القلويات المعروفة في مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربي (Alkali)، وماء الفضة.

وهو كذلك صاحب الفضل فيما عرفه الأوربيون عن ملح النشادر، وماء الذهب، والبوتاس، وزيت الزاج (حمض الكبريتيك). كما أنه تناول في كتاباته الفلزات، وأكسيدها، وأملاحها، وأحماض النتريك والكبريتيك، وعمليات التقطير، والترشيح، والتصعيد.

ومن أهم إسهاماته العلمية كذلك، أنه أدخل عنصريّ التجربة والمعمل في الكيمياء وأوصى بدقة البحث والاعتماد على التجربة والصبر على القيام بها، فجابر يُعَدُّ من رواد العلوم التطبيقية.

وتتجلى إسهاماته في هذا الميدان في تكرير المعادن، وتحضير الفولاذ، وصبغ الأقمشة ودبغ الجلود، وطلاء القماش المانع لتسرب الماء، واستعمال ثاني أكسيد المنغنيز في صنع الزجاج.

و اكتشف أن الشب يساعد على تثبيت الألوان، كما أنه صنع ورقاً غير قابل للاحتراق، وحضر أيضاً نوعاً من الطلاء يمنع الحديد من الصدأ. كما أن جابراً هو أول من استعمل الموازين الحساسة، والأوزان المتناهية في الدقة في تجاربه العلمية.

واكتشف (الصودا الكاوية) أو القطرون، و هو أول من استحضر ماء الذهب والفضة بخلطهما بحامض الكبريت وحامض النتريك، و أول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحلّ بواسطة الأحماض، وهي الطريقة السائدة إلى يومنا هذا. وأول من اكتشف حمض النتريك و حمض الهيدروكلوريك، و أدخل تحسينات على طرق التبخير والتصفية والإنصهار والتبلور والتقطير.

فمحاولة معرفة مدى صحة نظرية العناصر الأربعة ساعدت علماء العرب والمسلمين في الوقوف على عدد كبير جداً من المواد الكيماوية، وكذلك معرفة بعض التفاعلات الكيماوية، لذا إلى علماء المسلمين يرجع الفضل في تطوير اكتشاف بعض العمليات الكيميائية البسيطة مثل: التقطير. التسامي. الترشيح. التبلور. [1]

ثم مارس جابر الطب في بداية حياته تحت رعاية الوزير جعفر البرمكي أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد.

ولقد عرَف ابن حيان الكيمياء في كتابه العلم الإلهي بأنه (الكيمياء هو الفرع من العلوم الطبيعية الذي يبحث في خواص المعادن والمواد النباتية والحيوانية وطُرق تولدها وكيفية اكتسابها خواص جديدة).

وقد وضع جابر نظرية رائدة للإتحاد الكيميائي في كتابه (المعرفة بالصفة الإلهية والحكمة الفلسفية)، حيث قال: (يظن الناس خطأً أنه عندما يتحد الزئبق والكبريت تتكون مادة جديدة في كُلّيتها، والحقيقة أن هاتين المادتين لم تفقدا ماهيتهما، وكل ما حدث لهما أنهما تجزّأتا إلى دقائق صغيرة، وامتزجت هذه الدقائق بعضها ببعض، فأصبحت العين المجردة عاجزة عن التمييز بينهما، وظهرت المادة الناتجة من الاتحاد متجانسة التركيب، ولو كان في مقدرتنا الحصول على وسيلة نفرق بين دقائق النوعين، لأدركنا أن كلاً منهما محتفظ بهيئته الطبيعية الدائمة، ولم تتأثر مطلقًا).

وهو أول من استحضر ماء الذهب – كما أسلفنا –.

وأول من إعتقد بالتولد الذاتي. وأضاف جوهرين إلى عناصر اليونان الأربعة وهما (الكبريت والزئبق) وأضاف العرب جوهرا ثالثا وهو (الملح). وأول من اكتشف حمض الكبريتيك وقام بتسميته بزيت الزاج. وأدخل تحسينات على طرق التبخير والتصفية والانصهار والتبلور والتقطير.

واستطاع أيضا إعداد الكثير من المواد الكيميائية كسلفيد الزئبق وأكسيد الارسين (arsenious oxide).

ونجح في وضع أول طريقة للتقطير في العالم. فقد اخترع جهاز تقطير ويستخدم فيه جهاز زجاجي له قمع طويل لا يزال يعرف حتى اليوم في الغرب باسم (Alembic) من (الأمبيق) باللغة العربية. وقد تمكن جابر بن حيان من تحسين نوعية زجاج هذه الأداة بمزجه بثاني أكسيد المنجنيز.

شهادات غربية

إن جابر بن حيان هو الذي وضع الأسس العلمية للكيمياء الحديثة والمعاصرة، وشهد بذلك كثير من علماء الغرب.

فقال عنه (Berthelot) برتيلو: (إن لجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق).

وقال عنه الفيلسوف الإنكليزي (باكون): (إن جابر بن حيان هو أول من علم علم الكيمياء للعالم، فهو أبو الكيمياء).

ويقول ماكس مايرهوف: يمكن إرجاع تطور الكيمياء في أوربا إلى جابر بن حيان بصورة مباشرة. وأكبر دليل على ذلك أن كثيراً من المصطلحات التي ابتكرها ما زالت مستعملة في مختلف اللغات الأوربية.

ونود أن نذكر القارئ الكريم بأن جابر بن حيان هو أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام كما أسلفنا في ترجمته في العدد السابق.

----

(١) منتدى مدرسة صارم الدين النجمي، منتدى العلوم: نبذة عن أول عالم كيمياء في التاريخ (جابر بن حيان).


لو قطعوا أرجلنا واليدين